احمد الشيباني

دراسات في العقائد

الرأسمالية - الإشتراكية - الشيوعية - الصهيونية

دار الكاتب العربي - بيروت

مكتبة النهضة - بغداد

دراسات في العقائد

الاهداء

الى أخي وصديقي

الاستاذ الكبير قدري قلعجي

العقائد والأخلاق

١ ــ مدخل

إن القيمة الحقيقية لكل عقيدة ، إنما تمثل في المذهب الأخلاقي الذي توقظه داخل الانسان غريزة ً وفطرة وسلوكاً ، فليس المهم في العقيدة أن تبدل شكل الدولة وتغير نظام المجتمع ، بل انمـــا المهم المهم هو في ان تصوغ داخل الفرد شكلاً ونظاماً أخلاقيين ، وذلك لان العقيدة شيء حي متحرك ، وهي تستمد حياتها من سلوك الانسان ، وحركتها من ممارسته لها . ولمـا كانت الاخلاق هي وحدها التي تنظم السلوك وتنظم الممارسة ، لذا فان توطد العقيدة وسلطانهـا ، او تهافتها وزوالها ، يتوقفان كلياً على مدى انسجـام العقيدة وجوهر الاخلاق الثابت وغير المكتسب ، او على مدى تعارضها وقواعد هذا الجوهر ، فالاخلاق كما أكدت الاحداث التاريخية هي وحدها الروح والطاقة لكل عقيدة ونظام ، علماً بأن الاخلاق لا تذعن ابداً للحواس ولا تستسلم لها، اذ ان مهمتها الاساسية هي السيطرة على هذه الحواس وترويضها وجعلهـا منتظمة متناسقة ً والنظام الاساسي الذي ينتظم الكون الكبير في كل مخلوقاته وكواكبه وانظمته الشمسية ومجراته وانهار مجراته ، لذلك فان جوهر الاخلاق الثابت غير قابل للتأثر بأي عامل اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي ، بسبب كونه فوق كل هذه العوامل ، أو بالاحرى الناظم لهذه العوامل والمقرر تبني أو اطراح بعضها أو كلها أو خلق عوامل جديدة ، بغية الحفاظ على التناسق والانسجام والتناغم بين حياة الانسان على هذا الكوكب وبين النظـام الاساسي الذي ينتظم الكون الكبير ، لذلك

فان الاخلاق قواعد كونية ثابتة لا يحدها مكان أو زمان ، ولا يترجمها ظرف ولا يفسرها وضع ولا تبررها أوضاع ، فجوهرهــــا جوهر الكون ، فهو ازلي أبدي ، وقاعدة اساسية ، لا بل القاعدة الاساسية لنظام الكون الكبير المتناسق المتناغم ، هذا النظام المنتظم والناظم لسلوك كل ما في ومن في الكون وممارسته . لذلك فكل عقيدة لا ترتفع بمذهبها الاخـلاقي إلى المستوى الكوني تسقط وتنهـــار ، وتعجز عن ان تستولد حضارة تقترب بالانسان الى جوهر الوجود للكون ومسبباته ، وقد صدق الفيلسوف الالمـاني « عمانوئيل كنت » « Kant » عندمـــا قرر أن الانسان لا يستطيع ألا عن طريق الأخلاق ، والأخلاق وحدها ، أن ينفذ الى الايمان بالله ، أو بالأحرى أن يربط وجوده بوجود الكون ، ويوفق بين سلوكه ونظـــام الكون ، لذلك فان كل عقيدة أصيلة ثابتة الجوهر ، لا يمكن لها ان تنافي الدين أو تتعــارض معه ، أو تنبذ الايمان بالله ، لأن الله كما اؤمن ويقول « كنت » Kant هو نموذج الكمال والعلة الوحيدة القادرة على إيجاد الخير الأسمى الذي يشعر العقل العملي ، أي التفكير الاخـــلاقي ، بوجوب تحقيقه للانسان . وقد صدق « غوتيه » عندما قرر بان الكون هو « النسيج الحي للابدية ». زد على ذلك ان النفس العربية ، بصورة خاصة ، إذا ما امتازت بشيء ما ، فانمـا تمتاز بحنينها الدفّاق الجارف إلى المطلق ، وبرغبتها الضارية في تجاوز ذاتها وتجـاوز كل ما يقع داخل نطاق الحس والحواس ، وهذا هو السر الكامن وراء جبروت تلك الانطـلاقة الصاعقة في سرعتها ، تلك الانطلاقة التي بدأت بمحمد وانتهت عندما اصبحت العظمة الانسانية ، كما يقول « شبنجلر » تقاس بالباع والذراع ، وتقدر بالقنطار والدينار ، بعدما كانت تُقاس بما لا يُحسّ به من الاخلاق والمناقب .

نعم لقد انتهت عندمـــا أصبحت الحواس ناظماً للعقيدة والمنفعة دستوراً للممارسة ، وأمسى التوق إلى الرغيف ، لا إلى الكون ، شغـل العرب الشاغل ، وصارت الحياة وسيلة الى العيش ، بعد ان كان العيش شيئـــاً من وسيلة الى الحياة . وهنا مات كل حافز الى ممارسة الفضائل الكونية ، فالفضائل كما يقول

« افلوطينس » هي « حركة النفس نحو الله » والجمال هو النفس الحية أو الالوهية غير المنظورة في الاشياء، وانها غلبة الروح على الجسد والصورة على المادة والعقل على الاشياء .»

لذلك فإنني اؤمن بان مهمة الدولة العقائدية إنمـــا تتركز على بعث الجوهر الاخلاقي في الفرد وسيادة هذا الجوهر في المجتمع ، لهذا فان مفهوم الحكم اليوم هو في حقيقته مفهوم تربوي اكثر من كونه أي مفهوم آخر ، فلم يعد هناك في هذا العصر الثوري ، هذا العصر الذي أخذت فيه الاعناق والابصار تشرئب الى الكون الكبير ، من قائد أو زعيم قادر على ان يستمد قواه الايحـائية من سحر شخصي أو من إستنفار غرائزي للجماهير ، بل إنمـا اصبح المنبع الاوحد لقواه يتمثل في قدرته على تفجير الطاقات الاخلاقية الخلاقة في نفس الانسان والامة ، وخاصة في أمة كالامة العربية التي تملك كما يقول عنها البانديت نهرو « غريزة اجتماعية سامية تقدسها اعظم تقديس ، وذلك لاعتقادها بان ما من بناء اجتماعي يتركز إلا على أساس الإرادة العـامة ، لا على الرغبة المستبدة ، ولا على التنظيم المتشابك الذي لا يستقر إلا بعد أن تعيد الاجيال نظرها فيه مراراً وتكراراً.» وصدق ابن خلدون ايضاً حينما قال : « ان العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية ، أو أثر عظيم من الدين على الجمـلة ... والعرب اسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق . »

وصدق لورنس حينما وصف العرب في كتابه المشهور « أعمدة الحكمة السبعة » فقال عنهم :

« إنهم يمكن ان يقادوا إلى نهايات الارض ، على أن يكون قائدهم نبياً ذا رسالة . »

من كل ما أوردته آنفاً بحثــاً وأمثلة ومقتبسات وددت ان أبرز الحقائق التاريخية التالية :

ا – إن قيمة العقيدة إنما تقدر بقيمة المذهب الاخلاقي الذي تستخلصه من فطرة الانسان الخيرة وتجعله ناظماً للمجتمع وقانوناً للدولة ودستوراً للانسانية .

ب – إن الاخـــلاق قوانين حديدية يجب ان تنتظم ، داخل نفس الفرد الانسان ، البيئة والمجتمع والدولة والانسانية والكون الكبير ، وان الاخلاق – الانسان هي بمثابة الآلة المتناغمة الالحان والآلات الموسيقية الاخرى التي تعزف منذ الازل والى الابد ، تلك السمفونية الرائعة المسماة بالكون .

ج – ان كل عقيدة تتنازل او تنبذ الميتافيزيكا ، إنما تتنازل وتنبذ الاخلاق ، وتحتقر الكون الكبير الممثل والماثل في الفرد الانسان ، لذلك يتوجب ان يكون لكل عقيدة لاهوت لا أيديولوجية .

د – إن الحضارة ، كما يقول برنارد شو ، الفابائي المعروف ، تحتاج الى دين ، وإن حياتها او موتها يتوقفان على ذلك ، والحضارة إنما تسقط ، كما يقرر المؤرخ الكبير أرنولد توينبي ، في اللحظة التي تكون فيها قوة « الانسان » اشد من قوة الدين .

هـ – ان تاريخ الانبعاث العربي السابق قد دلل ، بما لا يقبل الشك ، على ان كل عقيدة تريـــد ان تسيطر على النفس العربية ، عن طريق تنظيم الامور المعاشية فقط ، واهمال الجوانب الروحية ، هي عقيدة منبوذة ، سلفاً ، شكلا وموضوعاً ، لانها تتعـــارض والقواعد السيكلوجية الاساسية للنفس العربية ، هذه القواعد الممثـلة في الاباء والنخوة والشهامة ، والمفطورة على الديمقراطية المباشرة ، والهاتكة لكل ستر يفصل المحكوم عن الحاكم ، والمواطن عن الرئيس : لذلك فان النفس العربية ، هي من ذاك النوع الذي لا يقايض على حريته برغيف .

و – انني أؤمن عميق الايمان ، وايمـــاني هذا ليس قضية ارادية كما يعتقد

جون بول سارتر بالايمان، بان الامة العربية هي الامة الوحيدة القادرة على ان تقدم للانسانية على ظهر هـــذا الكوكب رسالة كونية خالدة ، وهذه الرسالة تتمثل في إعادة التوازن داخل الانسان بين ضميره وعقله وحواسه وذلك عن طريق اخلاق انسانية اصيلة ، فلقد ثبت تاريخياً ان الحضارة إنما تنهار حينما يختل هذا التوازن ، فاذا ما سيطر العقل وحده على الانسان ، وحـــارب الاعتبارات الضميرية ، فعندئذ تسيطر مباشرة الحواس على العقل والانسان معاً، لان الحواس هي طريق العقل الى النشاط والعمل ، إذن الحل الحقيقي للمشكلة الانسانية لا يمكن ابداً ان يتم عن طريق إقصاء الاعتبارات الضميرية عن هذه المشكلة ، بل إنما يتم دائماً حينما تسيطر الاعتبارات الضميرية على هذه المشكلة ، ويترك لها وحدها حرية التصرف والعمل ، فالضمير هو وحده ذاك الميزان الذي يجب ان توزن به جميع استنتاجات العقل ونوازع الحس ، وعندما نتخذ من الضمير ، الذي هو من الاخلاق بمثابة مركز دائرتها ، ميزاناً لنا فعندئذ لن نسقط ابداً ، وقد صدق جان جاك روسو حينما قال :

« إننا نسأل الله لماذا خلقني ضعيفاً بهذا الشكل ، فتجيبنا ضمائرنا : إنما خلقتك أضعف من أن تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة لأنني خلقتك اقوى من ان تسقط فيها . »

ز – ليس هناك في العقائد او السياسة المتوخية تنفيذ العقائد وتجسيدها في المجتمع من اخلاق مثالية واخرى واقعية ، بل إنما هناك اخلاق واخلاق فقط تتجاوز كل الظروف والاعتبارات والحالات من آنية وطارئة ، لانها ترى فيها اعراض مرض ، وعوارض داء ، فالغاية لا يمكن ، لا بل لا يجوز ابداً ان تنفصل عن وسائلها ، كما ان الجريمة لا يمكن لها ابداً ان تكون وسيلة من وسائل تحقيق او تحقق مثل

اعلى ، فالاخلاق التي تستسلم للاوضاع والظروف والحالات ، تعجز ابداً ودوماً عن ترويضها او تبديلها ، وتمسي في النهاية ضحيتها وفريستها ، وقد قدم لنا التاريخ كثيراً من العصور الضخمة والمعدمة من العظمة ، لانها معدمة من الاخلاق ، ووجدنا ان معظم اللامعين من ابناء تلك العصور كانوا اذكياء لاخلاق لهم ، قادرين لا ضمير لهم ، شجعاناً مجردين من النخوة والشهامة والشرف ، لقد اسسوا دولاً وبنوا امبراطوريات ، لكنهم عجزوا عن بناء الانسان ، فدالت دولهم وانهارت امبراطورياتهم ، ولم تبق منهم سوى آثار لتشهد على ما تستطيع الحيوانية ان تنجزه من اعمال مروعة سوداء دامية ، فدخلوا صفحات التاريخ كأنهم علامات تحذير وانذار للانسانية من ان تسلس ، مستقبلا ، لأمثالهم ، قيادها ، وكان هؤلاء فلاسفة الاخلاق الواقعية وشياطينها .

ان ما تسمى بالاخلاق الواقعية ، انما هي الوجه الحقيقي الكالح للعدمية ، المؤمنة بان اليوم لا غد بعده ، وان الحياة تنتهي عند عتبة القبر . وكم يبدو الانسان حقيراً تافهاً ، اذا ما أقام دستوره الاخلاقي الناظم لسلوكه وممارسته والحافز لهمته وحيويته ، على اساس ايمانه بان حياته بدأت بعملية جنسية قام بها والداه ، وتنتهي في غياهب اللحد !؟ عندئذ لن تكون الحياة البشرية اكثر من ملهاة عابثة ماجنة خطها قلم عدمي مجنون .

٢ ـــ الأخلاق والحضارة الغربية في معسكريها

إن المتمعن في الرأسمالية والشيوعية معاً ، ليجد أن كلتا العقيدتين إنما تنبعان من نبع واحد هو النظرة المادية الى الحياة . ومع أن الشيوعية تعتبر ،

والحق ، ثورة على الرأسمالية في حقول الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، لكنها تتفق وإياهـا في حقل الاخلاق ، فكلتاهما تدينـــان بالمذهب الاخلاقي الميكيافيللي ، وكلتاهما تمارسانه ضميراً وعقلاً وفعلا ، ولا غروَ في ذلك ، إذ أن الشيوعية والرأسمالية خاضعتـــان خضوعاً كلياً للحواس ، وإن كانت الشيوعيـة تهدف ، كما تقول ، إلى إشبـاع حواس كل فرد من البشرية (لا الانسانية) ، بينما أن الرأسمالية تتوخى إشبـــاع حواس طبقة واحدة . فالرأسمالية تستهدف أن تستـــأثر بالارباح لأبناء طبقتها ، بينما أن الشيوعية تستهدف أن تعيد فائض القيمة – اي الارباح – إلى المنتجين الحقيقيين ، اي العمال (والفلاحين) . إذن فهدفهما واحـد وغايتهما واحدة ، ألا وهو الربح المترجم نقداً وعقاراً وأمور عيش . ولما كانت كل المقدمات المنطقيـة تقول بأنه في حالة تماثل الأهداف والغايات ، فعنـــدئذٍ تتماثل ايضاً الأساليب والوسائل للوصول إليها ، ولما كانت ايضاً الاساليب والوسائل هي في واقعها الاجتماعي ، انما تنبىء عن أخلاق اصحابها وماهيتها ، لذلك فان كلتا العقيدتين تدينان بمذهب اخلاقي واحـد ، وإن كان مذهب الشيوعيـة الاخلاقي أوسع شمولية في تأمين الرغد ورفاه العيش ، كما وان كلتا العقيدتين ملحدتان لا تؤمنان بالميتافيزيكا ، وإن كانت الرأسمالية تؤم الجوامع والكنائس والكنيس ، أما الشيوعية فهي تفاخر بالحادها ولا تخفيه ، ولا غرو في ذلك فكيف نريد ممن يؤمن بالارقام وينبذ كل شيء لا يدخل صندوقه أو معدته ، أن يؤمن بكون كبير أو بدين او بالله ، ولذلك كله أإنهارت الرأسمالية ام سيطرتِ الشيوعية ، او العكس بالعكس ، فان المشكلة الانسانية تبقى دون ما حل ، لأن المشكلة الاساسية هي مشكلة اخلاقية ميتافيزيكية ، مشكلة احد عناصر حلها هو الوجود المادي ، وليس هذا الوجود هو كل عناصره او مفتاحه . زد على ذلك أن الاخلاقية المادية في شقيها الرأسمالي منهما والشيوعي ، سينتهيان بنا في آخر المطاف ، إلى نتيجة واحدة ، وهي الابقاء على القلق الروحي الذي ما يزال الانسان يعانيه منذ أن عرفت الحضارة الغربية في مطلع القرن الخامس

عشر طريقها إلى الوجود . فالاخلاقية المادية هي من الوجهة اللاهوتية أخلاقية انعزالية ضيقة ذات أبعاد ثلاثة ، وإن كان بُعدها الثالث ، ارتفاعاً ام عمقاً ، يأبى حتى هذا اليوم أن يتجاوز طبقـــات الجو العليا ، في وقت أخذ العلم يتجاوزها فعلاً وواقعاً ، وهكذا بدأ العلم اليوم يجاهد ليندمج في الاخلاق ويذوب فيها .

والعلم كما نعلم جميعاً ، يبدأ إلهاماً ضبابياً غامضـــاً ثم يصبح علماً يخضع للحواس والارقام ، لذلك كانت الاخلاقية المادية تتعامل مع الجدول لا النبع ومع الظل لا الاصل . زد على ذلك ان جميع مقاييسنا المعنوية والمادية والزمنية قد قررناها وفقاً للنظام الشمسي الذي يتبعه كوكبنا ، ووفقاً للظروف الحياتية التي نشأت منها وتطورت وفقها الحياة على هذا الكوكب ، وهذا ما يقول به جميع الفلاسفة الماديين الحديثـــين ، من داروين الى ماركس وانجلز وفرويد ، وهذا ما يعني ان الانسان سليب الارادة الحرة ، وان دوره في الوجود لن يتعدى ابداً دور المنفعل والمتفاعل مع هذا الوجود ، إلى دور الفاعل فيه ، لأنه جوهره وضميره . واليوم وقد اصبحنا نقف على اعتاب الكون الكبير ، يتوجب علينا ان نعيد النظر في جميع المقـــاييس والقواعد التي عرفناها وتبنيناها ، وذلك إذا كنا حقاً صادقين بأن كوكبنا ليس هو وحده الكون ، بل انه ذرة رمل من رمال محيط لا حدود له او شواطىء ، زد على ذلك ان اينشتين نفسه قد قرر ان جميع القوانين والقواعد العلمية المألوفة لدينا لا تصلح للتطبيق على الكون الكبير . لذلك فالاخلاقية المادية في شقيها الشيوعي منه والرأسمالي لا تستطيع ابداً ان تسند الانسان وهو يرد في هذا العصر بجرأة وشجاعة على تحدي الكون له . وقيمة العقيدة كما قلت آنفاً ، انما تتمثل في التأييد الذي يستمده منها الانسان في لحظات الحسم ، في اللحظات التي يتسامى فيها الانسان وجداناً وفكراً وإرادة ، والمادية عقيم وغير ولود لمثل هـــذا التسامي ، لأن المادية لا تؤمن بأن الانسان يمكن ان يكون له دور في هذا الوجود غير دور المنفعل والمتفاعل ، وان التطور يحدث بصورة عرضية لا

تدبير فيها ولا حكمة . وقد رد جورج برنارد شو على هذه النظرة الى الحياة رداً رائعاً حينما قال :

« اي امل هنالك إذن في ان تسير الانسانيـــة الى افضل ؟ إذا كان الداروينيون الجدد والميكانيكيون لا يعتقدون بأن هناك شيئاً من الامل لان التطور لا يحدث إلا بصورة عرضية لا تدبير فيها ولا حكمة ... بيد أن هذه العقيدة الشقية لا تثبط عزائم اولئك الذين يؤمنون بأن الدافع الذي ينجم عن التطور هو خلاق . وقد لاحظوا حقيقة شديدة البساطة وهي ان الارادة التي تصر على شيء تفعله في النهاية ، وهي تستطيع ، في لحظات معينـــة من التركيز الذي تبلغـــه لايمانها بالحاجة إليه ، ان تخلق وتنظم كياناً جديداً ، ولهذا فهؤلاء لا يعتبرون الجنس البشري لعبة لا إرادة لها . »

نحن لا نستطيع ان ننكر ان الشيوعيـــة جاءت بمثابة رد فعل عنيف للرأسماليـــة التي مارست في القرنـين التاسع عشر والعشرين افجع المآسي الانسانية واحط الرذائل ، من إستغلال واستعمار واستعباد ، ولكن الشيوعية مع ايمانها بضرورة هدم جميع التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي نشأت عن الرأسمالية ، إلا انها عجزت كل العجز عن إيجاد حافز جديد للانسان ، حافز يبقي للأنســـان طاقته الفاعلة في الكون ، ويعطيه معنى لوجوده ، وسبب عجز الشيوعية عن إعطاء مثل هذا الحافز يعود اولاً واخيراً ، الى انها بدلاً من أن تنفي الحافز الذي وطدته الرأسمالية في النفس الانسانية ، هذا الحافز الممثل بحب العيش ، جاءت لتؤكده وتجعل منه فلسفة وديناً ، ولا شك ان القارىء ليدرك عميق الادراك الفروق الجوهرية بين حب العيش وحب الحيـــاة . فالحيوان يحب ان يعيش ، امـــا الانسان فيتوق الى ان يحيا .

ومن الطريف ان نرى اليوم في الاتحاد السوفياتي ان ابناء الجيل الجديد فيه ، جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية من ابنائه ، يلتقون في سلوكهم الشخصي

ومثيله من ابناء الدول الرأسمالية ، واعني بهذا الجيل ، الجيل الذي يطلق عليهم اليوم في بريطانيا إسم Tedy Boys ، ويقوم الآن الكتاب والمفكرون السوفيات المخضرمون ، الذين عاشوا في عهد ستالين ويعيشون في عهد خروشوف ، بشن الحملات الشعواء عليهم ، ويمثل هذا الجيل في الاتحاد السوفياتي الشاعر السوفياتي الشاب إفتشنكو ، ويحاول هذا الجيل ان يقلد في سلوكه ، او بالاحرى ان يسلك السلوك ذاته الذي يسلكه جيل « التدي بويز » في البلدان الرأسمالية الغربية ، وهذه الظاهرة هي ذات مغزى عميق ، وعميق جداً ، إذ انها تدل دلالة واضحة على بداية الالتقاء بين الرأسمالية الجديدة ، رأسمالية القرن العشرين ، الرأسمالية الخاضعة لضريبة الدخل العالي ، وبين الشيوعية ، فالرأسمالية الحديثة تتطور اليوم إلى كما يريدها ووصفها جيمس برنهام ، التروتسكوي السابق ، الى اعتماد نظام المديرين . كما تدل دلالة واضحة على ان الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ، بعد ان جعلت او تكاد تجعل من الاتحاد السوفياتي ، دولة على مستوى الولايات المتحدة الاميركية ، اقتصاداً ودخل فرد ، اوشكت ان تستنزف طاقاتها الثورية ، واوشكت ان تلقي بأبنائها إلى الحيرة والقلق اللذين تعانيهما اليوم شبيبة الدول الرأسمالية الغربية . وقد اورد الكاتب الروسي إدواد كرانشكو في كتابه المعروف « الحياة بدون ستالين » مقطعاً طريفاً يصف فيه مسلك هذا الجيل ويقول :

« إن هؤلاء يسمون لينندراد ببتروغراد ، وستالينغراد بتزاريستين ، وشارع غوركي في موسكو « بشارع برودواي » ويحبون ان ينادوا رفيقهم « بهلو مستر » ، « والكوبيك » امسى على لسانهم « سنتاً » و« الروبل » « دولاراً » ... »

ومن اطرف الطرائف ان تخرج اليوم نظرة « جديدة ؟! » إلى الحياة ، واعني بهذه النظرة — الوجودية ، وإذا كان هناك من قيمة للوجودية ، فان قيمتها تتمثل في كونها ظاهرة بالغة الاهمية ، ودلالة على ان المادية اخذت

تحاول جمع شتات ابنائها من رأسماليين وشيوعيين لتصهرهم في الوجودية ، هذا المذهب الذي يمثل نقطة الالتقـاء الرأسمالي الشيوعي في الماديـة المتجهة الى هاوية الانحلال والعدم ، وإنني هنا أود ان اكتفي بايراد بعض ما ورد على ألسنة بعض اقطابها ، وذلك لانني اعد في الوقت الحالي دراسة عن هذا الموضوع :

يقول سارتر :

« حكم على الناس باليأس ، لانهم يكتشفون ان جميع النشاطات الانسانية متساوية متماثلة ... وانها كلها مقدر عليها الاخفاق ، مبدئياً ، وهكذا سواء على الانسان ، أتعاطى الكؤوس في عزلته أم قاد الشعوب . »

ويقول شتوف :

« إذا كنت حقاً تريد الخلاص ، فعليك ان تقتل العقل والشرع ، ذلك لأن الانسان لا يسعه ان يعيش معهما . »

ويقول ألبير كامو :

« ليست هناك إلا قضية فلسفية واحدة تتمتع حقاً بصفة الجد ، وهذه القضية هي الانتحار » .

ويقول كامو في مكان آخر :

« تؤلف خمرة اللامعقول وخبز اللامبالاة عظمة الانسان ... اللامعقول اضاء لي هذه النقطة ، ليس ثمة من غد ، هـــذا ما يؤلف ، بعد الآن ، سبباً لحريتي العميقة » .

ويقول كامو ايضاً :

« إن الايمان بمعنى الحياة يفترض دائماً سلـّماً للقيم واختياراً واشياء نؤثرها ، اما الايمان باللامعقولية ، الذى ابشر به ، انا كامو ، فيقول العكس ».

ويقول الوجودي المسيحي المعروف غبرييل مارسيل :

« ... وواقع ان الحياة قد تبدو مجردة من المعنى ، بكل ما تعني كلمة « مجردة » ، هذا الواقع يؤلف جزءاً مكملاً من أجزاء كيانها . »

وهناك آلاف الاقوال « المأثورة » غيرها عن اقطاب الوجودية من كتاب وفلاسفة .

وختاماً وددت ان اكتب هذا المدخل رغبة وحباً مني ، في محاولة لفت نظر الشبيبة العربية ، في هذه المرحلة ، من مراحل انبعاثنا القومي والانساني ، إلى الحقيقة القائلة بأن قيمة العقيدة انما تتمثل في انسجامها والاخلاق الانسانية ، هذا الجوهر الذي يربطنا بالله والكون .

أحمد الشيباني



ما هي الرأسمالية — فلاسفة الرأسمالية — الرأسمالية والاستعمار

ا ـــ مدخل تاريخي

تنحدر الرأسمالية من صلب البرجوازية ، ومع أن البرجوازية في مرحلتها الأخيرة هي الرأسمالية في مرحلتها الاولى ، غير ان هناك كبير فرق بين مفهومي الرأسمالية والبرجوازية ، فالبرجوازية تمثل طبقة اجتماعية يتركز نشاطها على على تصدير السلع واستيرادها ، اما الرأسمالية فتمثل طبقة اجتماعية تملك مشروعات صناعية تحل فيها الآلة محل اليد العاملة ويصبح المال لديها عنصراً جوهرياً من عناصر الاقتصاد. إذن فان البرجوازية في دور الشيخوخة هي الرأسمالية في دور الطفولة .

لذلك يحتم علي تسلسل البحث ان القي نظرة خاطفة على البرجوازية ، وان اسرد سرداً موجزاً تاريخ تطورها .

ولدت البرجوازية في كنف نظام الاقطاع ، ونظام الاقطاع كما يعلم القارىء يستند في دستوره الى القواعد التالية :

ا – انعدام الحكم المركزي .
ب – التبعية الدائمة او القنانة (Serfdom) .
ج – الخدمة المجانية الاجبارية في ارض « السيد » يوماً كل اسبوع .
د – الخدمة الاجبارية المجانية في المواسم في ارض « السيد » .
هـ – تقديم الهدايا في الاعياد والمناسبات الى « السيد » .

و – طحن الغلال في مطحنة «السيد» وعصر محاصيل الكروم في معصرته.
ز – لا يجوز للفلاح « القن » ترك عمله في ارض « السيد ».
ح – « السيد » هو المرجع الاوحد للاقنان في جميع الحالات واحكامه غير قابلة للنقض.

(لقد تعمدت ان اسوق في حديثي عن البرجوازية القواعد الاساسية لدستور الاقطاع ونظامه وذلك رغبة مني في ابراز اسباب ثورة البرجوازية على الاقطاع مستقبلاً).

تشتق كلمة البرجوازية من كلمة Burg اي « القلعة » وقد اطلقت على فئة التجار او الباعة المتجولين الذين كانوا يؤمون الارياف ليبادلوا على المنسوجات والعطور والتوابل بالمنتوجات الريفية ومشتقاتها ، لذلك كان اول مطلب للبرجوازيين يتمثل في حصولهم من « السادة » الاقطاعيين على حق الانتقال وحرية التجوال بين الاقاليم، هذا الحق الذي لم يكن مباحاً للفلاحين الاقنان وقد استجاب « السادة » الاقطاعيون لهذا المطلب لقاء مبالغ من المال قام البرجوازيون بدفعها اليهم .

اما في الشتاء وعندما تغمر الثلوج والاوحال الطرق والمسالك فيغدو التجوال والانتقال عسيراً صعباً، فكان البرجوازيون يتمركزون في القرى الواقعة على مفترق الطرق او عند مصب الانهار، ومن ثم اخذوا وبالطبع بموافقة «السيد» صاحب الاقطاعية، يبنون المنازل في تلك النقاط ذات الاهمية التجارية، وهكذا تكونت شيئاً فشيئاً المدن التي اطلق عليها اسم Burg ، كما وانهم طلبوا من « الاسياد » أصحاب الاقطاعيات السماح لهم ببناء الاسوار حول مدنهم ، فسمح لهم بذلك لقاء ما دفعوه لهم من مال او هدايا . وكان هؤلاء التجار هم انفسهم يقومون بحراسة المدن ، وهذا مما يخالف دستور الاقطاع الذي يحصر بالسيد مسؤولية حماية الاقنان وتوفير الطمأنينة لهم . وبذلك اصبح لهذه المدن شبه استقلال إداري ، غير ان الكلمة العليا بقيت للاسياد ، أصحاب الاقطاعات

الذين كانوا يتقاضون نسباً معينة من الارباح . ورغبة من البرجوازيين في الحفاظ على مصالحهم وتدعيم أمنهم وتوفير اسباب طمأنينتهم بدأوا في تكوين اتحادات عامة ، وكان يتحتم على كل تاجر ان يقسم يمين الولاء للجميع .

اخذت المدن تنمو شيئاً فشيئاً وتكونت طبقة اجتماعية جديدة ، وبرزت البرجوازية في المجتمع الاقطاعي ، المؤلف من طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين والاقنان ، ورأت الكنيسة في هذه الطبقة الجديدة خطراً داهماً على سلطانها ، وخشي رجال الدين ان يفقدوا سلطاتهم الواسعة على المدن الناشئة ، لذلك قاموا بشن الحملات العنيفة على البرجوازية ، فاستطاعوا ان يمنعوا الاحتكار ويمنعوا السمسرة ويحددوا الأسعار ويحدوا من ارباح البرجوازية . وقام واعظون دينيون « كجاك دوفيزي » و « ايف دو شارتر » لمحاربة الربا ، غير ان البرجوازية لم تتأثر بهذه الحملات ، بل دعمت سلطاتها في المدن واخذت تديرها حسب رغباتها ، واصبحت هي التي تشرع لنفسها وهي التي تسن القوانين التي تلائمها. وهي التي تختار قضاتها وفجأة تبدلت المقاييس واختلت الموازين واصبحت الثروة هي التي تحدد قيمة الفرد الاجتماعية لا الملكية الواسعة للارض وغدا اثرياء البرجوازية اسياداً مطلقي الصلاحيات يكدسون الاموال وينمون الثروات غير عابئين بصالح الشعب من نبلاء ورجال دين او اقنان ، وانقسم المجتمع في المدن الى طبقتين : طبقة الاثرياء الذين يملكون كل شيء ولهم السلطة السياسية من ادارية وتشريعية ، وطبقة المعدمين الذين لا يملكون شيئاً من مال ، او رأياً في توجيه السلطة ، ولقد وصف المحلف الفرنسي « بومانوار » في منتصف القرن القرن الثالث عشر الوضع الذي آلت اليه البرجوازية فقال : «إنك لترى ان الفقراء ومتوسطي الحال ، ليس لهم مركز واحد من مراكز الادارة في المدن بينما الاغنياء مسيطرون عليها تماماً ، ولئن كان بين رؤساء البلديات او المحلفين بعض رجال الطبقات الفقيرة ، فانهم بعد زمن صائرون حتماً الى وضع الاغنياء ذاتهم وحينئذٍ لا يعودون من طبقة الشعب ».

وهكذا كان لا بد للنبلاء ورجال الدين والاقنان والمعدمين من اهل المدن

من ان يتكتلوا ضد هذه الطبقة الاجتماعية النشيطة والظالمة ، لذلك شهدت اعوام ١٣٢٠ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٢ ، انتفاضات وثورات لاهبة ضد البرجوازية في فرنسا وغيرها من البلاد الاوروبية ، غير ان البرجوازية الاوروبية لقيت في صراعها ضد هؤلاء ، حلفاء اقوياء هم الملوك . إذ كان الملوك آنذاك يطمعون في توسيع ممالكهم وضم الاقطاعات اليها وإخضاع الاسياد الاقطاعيين الى سلطانهم، وبالفعل تمكن الملوك بمساعدة البرجوازية من توحيد الاقطاعات وحرمان الاسياد الاقطاعيين ورجال الدين من حق ممارسة القضاء بين الشعب ، وعندما تم للملوك هذا الظفر التفتوا الى البرجوازية فضموا ايضاً المدن الى ممالكهم واخضعوا مجالس البلديات الى سلطانهم . غير ان هذا العمل لم يؤثر على نفوذ البرجوازية او سلطانها ، إذ ان احتياجات الملوك المتزايدة للمال ، وتوفر المال لدى الطبقة البرجوازية دون غيرها من الطبقات الاجتماعية ، حافظ للبرجوازية على مكانتها المرموقة في المجتمع والدولة. ودليلي على ذلك هذا القانون العجيب الغريب الذي اصدره الملك « جان لوبون » عام ١٣٥٥ بفرض ضريبة تتناسب عكساً مع مع الثروة إذ نص هذا القانون على ان تفرض على العائدات التي تقل عن عشر ليرات ضريبة قدرها ١٠ ./. والعائدات ما بين ١٠ — ١٠٠٠ ليرة تؤخذ عليها ضريبة قدرها ٣ ./. واما العائدات التي هي ما فوق الالف ليرة إذا كانت لغير الاسياد اصحاب الاقطاعات فهي معفاة من الضريبة ، وكذلك عائدات النبلاء التي تتخطى الخمسة آلاف ليرة فهي معفاة من الضريبة ايضاً .

من هذا القانون يتضح ان السيطرة الفعلية كانت للبرجوازية .

لم تنس البرجوازية ما الحقته بها الكنيسة من اضرار واذى، لذلك ركزت نشاطاتها على محاربة الكنيسة اذ انها ادركت بغريزتها انه لا سبيل الى القضاء على الاقطاع ونظامه الا بالقضاء على الاساس الروحي الذي يستند اليه هذا النظام فشجعت « مارتن لوثر » على الثورة ضد الكنيسة، وأيدت سراً جون هس، وكلفن الذي وقف ليعلن على رؤوس الاشهاد ولاءه للبرجوازية فيقول :

« لماذا لا نسمح لصاحب المال ان يستغل ماله، بينما نسمح لصاحب الارض ان

يؤجر ارضه لقاء مبلغ من المال يحصل عليه دون ان يتعب نفسه في تحصيله ؟ »
وأخيراً بدأ المال يلعب دوره الجوهري في الاقتصاد، فتأسست المصارف وتوسعت اعمالها واصبحت النشاطـــات المصرفية عنصراً ضرورياً للاقتصاد ، وقد ساعد اكتشاف اميركا على تدعيم مركز المؤسسات المصرفية ومضاعفة رؤوس اموالها .
واصبح المال شرطاً اساسياً لكل قوة . فاخذ الاثرياء يقومون بانشاء المشروعات الصناعية ، وبرز الى المجتمع العمل المأجور وولدت الرأسمالية على زعيق الآلة وكدح العمال، وقامت الثورة الفرنسية تنص في « شرعة حقوق الانسان » على ان « حق التملك حق مقدس » وجاء نابوليون يفسر هذه المادة قائلاً :

« ما هو حق التملك ؟ انه ليس حق استعمال ما نملك فحسب ، ولكن ان نتصرف به كما نشاء ايضاً ، بل ان نغالي في التصرف ، يجب ان لا تغرب عن الذهن فوائد الملكية وان على التشريع ان يكون دائما بجانب الملكية . »

ب ـــ فلاسفة الرأسمالية

يرى « فرنسوا كنياي »(١٦٩٤ – ١٧٧٨) وهو احد الفلاسفة الطبيعيين ، انه يجب ان يكون الافراد أحراراً في العمل وان يسيروا وفق مصالحهم الخاصة وان يسمح لهم بمزاولة المهن التي يختارونها ، وان تترك لهم حرية الانتقال وحرية اجتناء الثروات وحرية التصرف في ممتلكاتهم كما يرغبون، ولا يجوز ابداً للدولة ان تتدخل في نشاطاتهم ، كما وانه لا يجوز للدولة ان تمد يد العون لهم .
وملخص فلسفة « فرنسوا كنياي » هو « دعه يعمل ، دعه يمر ، فالعالم يسير من تلقاء ذاته » او بقول آخر « لا تتدخل فالعالم كفيل ان يعنى بنفسه » .
اما آدم سميث (١٧٢٣ – ١٧٩٠) فانه يعتبر نبي الرأسمالية والعــــالم الاقتصادي الاول الذي شرح الرأسمالية ووضع دستورهـــا واشترع قوانينها،

وكتاب « بحث في طبيعة واسباب ثروة الامم » والمعروف باسم « ثروة الامم » يعتبر إنجيل الرأسمالية والرأسماليين . ومن الطريف ان آدم سميث كان صديقاً حميماً « لجيمس واط » مخترع الآلة البخارية .

يعارض آدم سميث المذهب التجاري القائل بان ثروة الامم تنبع من زيادة الصادرات على الواردات. ويقول سميث ان هذا المذهب خاطىء ، وذلك لان المنبع الوحيد للثروة هو العمل والموارد الطبيعية .

ويقول سميث ان ثروة الامم تتزايد نتيجة للمهارة والكفاية في العمل ، كما ان رفاه الامة انما يقاس بمقدار الدخل القومي الحقيقي ، وهذا القانون ايضاً ينطبق على الفرد . ويقول آدم سميث ان الوسيلة الاساسية لزيادة الانتاج تنحصر في تقسيم العمل واستخدام الآلات الميكانيكية ، فالتخصص الناشىء عن تقسيم العمل يرفع من طاقة انتاج العامل . ويرى سميث ان التحسين الذي طرأ على وسائل النقل قد وسّع الاسواق وعمقها ، وهذا مما سيخطو بالصناعة والتجارة قدماً . ويقول سميث ان القيمة الحقيقية للسلعة تقدر بمقدار العمل المبذول لانتاجها ولذلك فان الانسان لا يقدم على انتاج سلعة ما الا اذا وجد ان فائدتها تستحق الجهد الذي يبذله لانتاجها. أما في حالة ما اذا وجد ان بامكانه ان يحصل على تلك السلعة من طرف آخر بجهد اقل من الجهد الذى يضطر هو لبذله فعندئذ يجري عملية مبادلة مع الطرف الآخر. وعن هذه العملية ينشأ الكسب المتبـــادل بينه وبين الطرف الآخر. ويقول سميث ان الوسيلة لتحقيق الكسب المتبادل هي التخصص الناشىء عن تقسيم العمل والتجارة .

قانون العرض والطلب :

يقول سميث انه في ظل في نظام اقتصادي يستخدم النقود تكون للسلعة قيمتان الاولى حقيقية وهي العمل المبذول لانتاجها ، والثانية اسمية وهي السعر النقدي . ويقول ان القيمتين لا تتفقان وتتساويان اكثر الاحيان فاذا ما ازداد الطلب على

على سلعة ما ارتفعت قيمتها الاسمية وبذلك يجني المنتج المزيدمن المرابح،وهذه الزيادة من الارباح تخلق كما يري سميث المنافسة في الانتاج والتجارة إذ تقوم مشروعات اخرى بانتاج السلعة التي ازداد عليها الطلب ، وهذا ما سيؤدي الى انخفاض سعر السلعة ، وعندما يشبع السوق تنخفض القيمة الاسمية للسلعة المذكورة الى ما دون القيمة الاسمية ، ومن ثم يقول سميث بان القيمة الاسمية تبقى في معظم الظروف متذبذبة حول القيمة الحقيقية اما في حالة توازن العرض والطلب فعندئذ تتعادل القيمتان الحقيقية والاسمية .

ومن هذا يستنتج سميث قائلاً بان السوق الحرة ذات فوائد جمة للجميع ، إذ ان التنافس سيمكن كل انسان من الحصول على ما يحتاج اليه بأقل ثمن ممكن ، كما وان السوق الحرة ترغم اصحاب المشروعات على استخدام الموارد العامة في خدمة المستهلكين .

ومع أن آدم سميث يعترف اعترافاً ملتوياً بان هدف الرأسمالي هو اقتناص الارباح لا خدمة المجتمع ، غير انه يحاول من جهة اخرى ان يقول بأن الرأسمالي عندما يدير مشروعاً صناعياً ،فان يداً خفية تقوده الى تحقيق غاية هي ليست من اهدافه ، فهو أي الرأسمالي عندما يعمل على إنماء مصلحة فانه ينمي على حد اعتقاد سميث مصالح المجتمع بصورة فعالة اكثر مما إعتزم وبهذا يقرر آدم سميث القانون الآتي :

« لو ازيلت كافة النظم سواء ما تعلق منها بالايثار او الضبط فان نظام الحرية الطبيعية الواضح والبسيط يثبت وجوده بمحض إرادته » .

ويؤكد آدم سميث ان ملاحقة الفرد لغاياته الخاصة تشكل الدعامة الاساسية للمنفعة العامة .

ويرى سميث ان الزيادة في الثروة القومية تؤدي الى ارتفاع الاجور ،وان الصناعة ترفع من مستوى اجور العمال ، لذلك فان ارتفاع الأجور مرهون بنمو الاقتصاد ، ويقول آدم سميث ان هناك تفاهماً غريزياً بين ارباب الاعمال على على معدل للأجور إذ يصرح قائلاً :

« إن بين السادة دائماً في كل مكان تفاهماً شبه خفي،ولكنه دائم ومتجانس، من حيث عدم رفع أجر العمل فوق المعدل الفعلي ».

ويرى سميث ان الارباح تميل الى الانخفاض كلما زاد الشعب في تجميع رأس المال،ويرد سميث سبب الانخفاض هذا الى المنافسة في الصناعة.

ويقول سميث بان المنـــافسة هي شرط اساسي من شروط تحقق الحرية الطبيعية، لهذا فان آدم سميث يعتبر عدواً لدوداً للنظـام الاحتكاري إذ ان الاحتكار على حد تعبير سميث « هو عدو الارادة الحسنة التي لا يمكن توافرها الا نتيجة المنافسة الحرة العامة التي ترغم كل امرىء على الالتجاء اليها كوسيلة للدفاع عن النفس ».

ويأتي عقب آدم سميث روبرت مـــالتس (١٧٦٦ – ١٨٣٤) ونظريته التشاؤمية مشهورة وهي تقول ان الناس يتكاثرون وفقـاً لسلسلة هندسية بينما تتزايـــد موارد الطبيعة وفق عملية جمع لذلك فلا طريق لتخفيف الضغط عن موارد الطبيعة الا عن طريق الحروب والاوبئة والمجاعات التي تفتك بالبشر . وروبرت مالتس هو الذي قرر القانون المعروف باسم « **القانون الحديدي للاجور** » **وهذا القانون يقول بأن الاجور لا يمكن ان ترفع فوق مستوى الكفاف لان اية زيادة في الرخاء تؤدي الى زيادة مباشرة ومماثلة في عدد العمال، وحينما تهبط الاجور دون مستوى الكفاف فان الفائض من العمال سيقضي عليهم الموت .**

وينادي روبرت مالتس بضرورة الزواج في سن متأخرة إذ يرى فيه خيراً عمياً للأخـــلاق الانسانية والنظم وانه يتوجب على كل امرىء ألا يزيد عدد اولاده عن طاقته على إعالتهم .

واخيراً ينصح روبرت مالتس بعدم تقديم اية مساعدة او عون الى العائلات التي تعجز عن تدبير وسائل معيشتها ، ومن الطريف ان مقدم هذه النصيحة من رجال الدين المسيحي .

ومن ثم يجيء « جان بابتيست ساي » (١٧٦٧ – ١٨٣٢) وهو احد اتباع

آدم سميث وقد قام بتهذيب نظريات آدم سميث ورتبهـا في نظام ومنطق ،وهو الذي وضع القانون المعروف باسم « قانون ساي » وهذا القانون يقول بانه ما دام انتاج اية سلعة يخلق طلباً مماثلاً على سلعة اخرى إذن فلا بد ان يكون العرض الكلي مساوياً للطلب الكلي ، ومن ثم يقرر « ساي » قـائلا : « ونتيجة لهذا القانون لن يكون هناك وجود لما يُسمى « بالافراط العام في الانتاج ».

ج ــ ماهي الرأسمالية

أرى ان الرأسمالية هي المخطط الكامل الذي ابتدعته السلبية في العقـــل البشري لتنظيم وإدارة وتوجيه الغريزة البشرية في احط ادوارها الهمجية ، لذلك اعتبر الرأسمالية هي الحيوانية التي ينظمها العقل ، إذ انها تمثل طمعاً واعيا ونهما يقظا يعرف اهدافه ويعرف الوسائل التي يسلكها اليها ، وشراهة تتغذى بالواقع وتهتدي بنور العقل ، واثرة ضيقة خانقة ، إنها في اختصار أرقى الدرجات التي وصل اليها « العقل الحيواني » في الانسان .

ففي ظل النظام الرأسمالي تنعدم حتى الفضائل القليلة التي عرفهـــا مجتمع الاقطاع ، فضائل النخوة والشهامة والفروسية . لذلك يبلغ في النظام الرأسمالي الصراع بين « العقل الحيواني » « والعقـل الانساني » في الانسان ذروته ، ويتخذ المجتمع من الغـــابة مظهرها وجوهرها فلا حياة إلا للأقوى ولا وجود للضعيف ، اما ام الفضائل ومنبعها في ظل النظـــام الرأسمالي فهو الربح ، الربح بأية وسيلة وسبب ، والرأسمالية كما سنرى فـــيما يأتي من بحث لا تتغذى من دماء الشعب فحسب ، بل إنمـــا يلتهم الرأسماليون بعضهم بعضاً ايضاً .

وللرأسمالية قوانين رهيبة تسير بموجبها وتطبقها على كل نشاطاتهـــا وهذه

القوانين الرهيبة هي :

١ – قانون البحث عن الربح .
٢ – قانون المزاحمة والمنافسة .
٣ – قانون التمركز والقدرة على الانتاج وحصره .
٤ – قانون السعر المخفض .

١ – قانون البحث عن الربح :

ان هذا القانون يشكل التعارض الجوهري بين النظام الاشتراكي والنظـام الرأسمالي . فالنظام الاشتراكي كما قلنا في فصل سابق يحصر غايات الاقتصاد في سد احتياجات البشر ، بينما ان النظـام الرأسمالي يوجه الاقتصاد نحو تحقيق الارباح وإختبائها وتكديسها في صناديق اصحاب المشروعات .

وتبدأ الرأسمالية اول ما تبدأ في تطبيق هذا القانون على المجتمع الذي تنشأ فيه وتنشط ، ويكون اول ضحايا هذا القانون العمال والمستهلكون إذ انها تسعى ابداً الى زيادة ارباحها على حساب الاجور ، ونحن إذا مـا عدنا الى المراحل الاولى من تطور الرأسمالية شاهدنا مدى الاستغلال البشع الذي كانت الرأسمالية تمارسه ضد العمال ، إذ كان هدفهـا الاساسي يتركز اولاً واخيراً على ابتزاز اكبر قدر من الساعات الانتاجية من العمال لقاء اقل قدر ممكن للأجور . وهي لتحقيق هذا الهدف لا ترحم طفلاً او امرأة او شيخاً. ويورد كارل ماركس في كتابه المشهور « رأس المال » وفي الفصل العاشر منه والمعنون « بنهار العمل » رأي احد الرأسماليين البريطانيين المدعو ا. ف. ساندرسون في قـانون منع الاولاد الذين دون الثالثة عشرة من العمل ليلا ، فيقول هذا الراسمالي لا فض فوه ما يلي : « ان منع الاولاد الذين هم دون الثـالثة عشرة من العمل ليلا سوف تنجم عنه صعوبات كبرى ، واهمها زيادة التكاليف التي يسببهـا احلال

الرجال محل الاولاد، والى اي حد سوف ترتفـــع هذه التكاليف ؟ هذا سؤال لا استطيع الاجابة عليه ، ولكن من المحتمل انها لن ترتفع الى درجة يستطيع معها صاحب المعمل ان يرفع ثمن الفولاذ، لذلك فان الخسارة سوف يتحملها وحده نظراً لان العمال الرجال سوف يرفضون حتماً تحمل الخسارة ».

ويدرج كارل ماركس في احد هوامش الفقرة الخـامسة من الفصل العاشر من كتابه «رأس المال» مقطعا من التقرير الرابع المرفوع الى مجلس العموم البريطاني عن وضع الاولاد العمال في مصانع الزجـاج في بريطانيا فيقول هذا المقطع :
« ان اكثر الاولاد في معامل الزجاج حيث تصنع القناني الصواني والزجـــاج (Flint Glass) مرغمون على السير مسافة ١٥ — ٢٠ ميلاً تستغرق منهم ست ساعات لانجاز عملهم ، وكثيراً ما يستمر هذا العمل من ١٤ الى ١٥ ساعة ... وليست هناك ثمة لحظة واحـدة للعب واستنشاق الهواء النقي ، إن لم يكن ذلك على حساب النوم الذي لا غنى عنه لاولاد يقومون باعمال قاسية كهذه في جو محرق كذلك الجو ... كما وان لحظات النوم القصيرة متقطعة لأنه يتوجب على الاولاد ان يستيقظوا « لقضاء حاجاتهم » في الليل او بسبب الضجة الخارجية التي تقلق نومهم في النهار » .

ويستطرد كارل ماركس فيقول بأن تقرير مفتش العمل السيد « وايت » قد اورد بعض الحالات حيث اشتغل ولد صغير ستة وثلاثين ساعة متوالية، واخرى حيث يعمل بعض الاولاد حتى الساعة الثانية صباحـــاً، ويستيقظون في الساعة الخامسة صباحاً اي لا ينامون اكثر من ثلاث ساعات، ويدرج كارل ماركس في احد الهوامش فقرة من تقرير مفتش العمل « لورد » وذلك في الفصل العاشر من كتابه «رأس المال» وفي الفقرة الرابعة منه والمعنونة « عمل النهار وعمل الليل — نظام البدل » تتحدث هذه الفقرة عن نظام العمل فتقول :

« يعمل فريق وجبة النهار ، خمسة ايام كل اسبوع ، كل منها ١٢ ساعة ويوماً مقداره ١٨ ساعة ، اما فريق الليل فيعمل خمس ليال كل اسبوع ويوماً واحداً

في الاسبوع مقداره ست ساعات . وفي احوال اخرى تشتغل كل فئة اربعاً وعشرين ساعة بالتناوب ، فئة تعمل ست ساعات يوم الاثنين و ١٨ ساعة يوم السبت لاستكمال الـ ٢٤ ساعة ».

ويستطرد السيد لورد في تقريره فيقول :

« وفي حالة تغيب العمال المناوبين فثمة اطفال دون الثالثة عشرة ومراهقون دون الثامنة عشرة، ونساء يستخدمون في هذا النظام العملي الليلي . وكثيراً ما يتوجب عليهم الشغل في نظام الـ ١٢ ساعة بسبب غياب العمال المناوبين مدة الفئة المضاعفة (١٨ ساعة)، وقد ثبت من اقوال الشهود ان صبياناً صغاراً وفتيات شابات ، غالباً ما يرهقون بالعمل الاضافي الذي لا يستمر ٢٤ ساعة فحسب بل يتعداها الى ست وعشرين ساعة ايضاً ».

ويستطرد السيد لورد في تقريره فيورد التالي :

« وفي معامل الدهان نجد فتيات في الثانية عشرة من العمر يعملن ١٤ ساعة يومياً طيلة شهر كامل دون اية عطلة منتظمة باستثناء نصفي ساعة او ثلاثة انصاف الساعة ليتناولن وجبات طعامهن . وفي بعض المعامل التي تخلت عن عمل الليل يستمر العمل بصورة مفزعة ما وراء الوقت القانوني ، وخاصة ان العمل الذي يعملونه يتألف من اقذر العمليات واكثرها رتابة وحرارة ».

ويورد كارل ماركس فقرة من تقرير مفتش العمل « ليونارد هورنر » في هامش بدء الفقرة السادسة من الفصل العاشر من كتابه « رأس المال » فيقول :

« مؤكد انه لمؤسف جداً، ان يتوجب على طبقة معينة من الناس ان تكدح كل يوم إثنتي عشرة ساعة فاذا اضفنا الى هذا الوجبات والذهاب الى المعمل والاياب منه ، كان وقت العمل هو ١٤ ساعة في اليوم من اصل ٢٤ ... واذا وضعنا مسألة الصحة جانباً وارجو ان لا يكون ثمة من ينفي ان من وجهة النظر الاخلاقية ، يؤلف استغراق كهذا كامل وقت الطبقات العاملة ، دون انقطاع، منذ سن الثالثة عشرة ، وفي فروع الصناعة، ولذلك ولمصلحة الاخلاق

العامة ، وابتغاء تربية شعب بارع مكين ، يجب ان تجري المطالبة في جميع فروع الصناعة ، بأن يخصص في كل نهار من نهارات العمل وقت للوجبات والراحة ».

ويورد ايضاً كارل ماركس في الفقرة ذاتها وفي الفصل ذاته وعلى احد هوامشها نص العريضة التي قدمها عمال المغازل والمناسج عام ١٨٥٩. يقول العمال في عريضتهم هذه ما يلي :

« لكي نقول الحقيقة برمتها ، نقول ان حياتنا عزيزة علينا ، وطالما بقينا مقيدين الى المعمل تقريباً يومين (٢٠ ساعة) زيادة في الاسبوع فسوف نحس باننا عبيد اذلاء في البلاد ، وسوف نلوم انفسنا لاننا نخلد نظاماً هو سبب الهلاك المعنوي والجسماني لنا ولجنسنا ... اذن فنحن نخبركم بكل احترام ، اننا ابتداء من العام الجديد لن نشتغل دقيقة واحدة زيادة عن الستين ساعة في الاسبوع ، وذلك من الساعة السادسة صباحا حتى السادسة مساء مع حسم الاوقات القانونية للراحة وهي ساعة ونصف الساعة .

ويورد ماركس في الفصل ذاته مادة من القانون الصادر في ولاية نيو جرسي الأميركية وتنص هذه المادة على ما يلي :

« ان اي قاصر بلغ الثانية عشرة ولما يبلغ الخامسة عشرة ، يجب ان لا يستخدم في مؤسسة « مانيفاكتورية » اكثر من ١١ ساعة يومياً ، ولا يجوز استخدامه قبل الخامسة صباحاً ولا بعد السابعة والنصف مساءً .

هذه حوادث اقتطفتها من هوامش كتاب «رأس المال» لماركس وهي كما يلاحظ القارىء تقارير رسمية مرفوعة من مفتشي العمل الى الحكومة البريطانية . ولا أظن ان هذه التقارير بحاجة الى تعليق او شرح .

اما الأجور فان الاولاد العاملين لم يكونوا يتقاضون اكثر من اربعة شلنات في الاسبوع (لاحظ ان الجنيه عشرون شلناً)، وعندما صدر في انكلترا قانون الثامن من حزيران ١٨٤٧ الذي يقضي بتحديد ساعات العمل اليومي باحدى

عشرة ساعة اقدم الرسماليون البريطانيون على تخفيض اجور العمال بنسب تتراوح بين ٩ و ٢٥ بالمئة، وكان المستوى الاعلى للأجر آنذاك يبلغ عشرة شلنات في الاسبوع .

ووفق هذا القانون ، قانون البحث عن الربح ، يصبح العامل سلعة خاضعة لقانون العرض والطلب ، فليس للأجور حد أدنى او حد أعلى ، وانما تقرر مستواها حاجة السوق الصناعية اولاً، ومقدار عدد العمال ثانياً . فاذا كانت حاجة السوق كبيرة وعدد العمال لا يفي بها ارتفعت الاجور، ويتتابع ارتفاعها بالنسبة لحاجة السوق ، اما في حالة كون عدد العمال يزيد عن حاجة السوق فعندئذ يخفض الأجر ويتدرج في انخفاضه يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد اسبوع ، واخيراً في حالة توازن عدد العمال وحاجة السوق فان الاجر يحافظ على مستواه .

ولا يوجد في ظل النظام الرأسمالي كائن يدعى « الانسان » ، وانما هناك يد عاملة وإيد عاملة . فالنظام الرأسمالي لا يرى في الانسان سوى العضو المنتج منه ، الذي يقدم اليه الارباح والمرابح ، لذلك ينحدر النظام الرأسمالي بالانسان الى مستوى الآلة ، غير ان الآلة تلاقي عناية ورعاية من لدن الرأسماليين اكثر بكثير من الانسان، فتلف آلة في مصنع ما يعرض الرأسماليين الى خسارة محققة ويقلص من ارباحهم غير ان موت انسان عامل لن يلحق بهم اية خسارة ، فبوسعهم ايجاد يد عاملة اخرى (عامل) يحل محله ، هذه هي نظرة النظام الرأسمالي في العامل الانسان .

ويدفع قانون البحث عن الربح بالرأسماليين إلى التفتيش عن المرابح في كل قطر وبلد من اقطار العالم . ففي مطلع القرن السادس عشر عندما كان « المذهب التجاري » يسود المجتمع الاوروبي بدأت طلائع الاستعمار تغزو القارات الاسيوية والافريقية والاميركية، وبدأت آنذاك نواة الاستعمار في هذه القارات تنمو وتترعرع، غير أن « المذهب التجاري » هذا المذهب الذي كان يوجه

نشاطات البرجوازية التجارية لم يمكّن هذه الطلائع من ارساء قواعد ثابتة للاستعمار والمستعمرين ، وذلك لان أهدافه كانت محصورة في تجارة الصادرات والواردات . ولكن عندما بدأ النظام الرأسمالي يبرز الى الوجود فاكتشفت الآلة البخارية واسست المنيفاكتورة، وانشئت الصناعات، ونشأت طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة الرأسماليين مالكي وسائل الانتاج، وجد هؤلاء ان صناعاتهم كي تدر ارباحاً مجزية هي بمسيس الحاجة الى الاسواق والمواد الاولية ، فاخذت طلائع الاستعمار في الدول الصناعية، وخاصة في بريطانيا التي كانت تعتبر آنذاك الدولة الصناعية الاولى في العالم ، تقيم علاقاتها بالبلدان المكتشفة في القارة الاميركية وبالبلدان المستعمرة في القارتين الاسيوية والافريقية على أسس جديدة تدعمها القوات المسلحة من جيوش برية وبحرية ، وكان يتوجب آنذاك على الرأسمالية ان تخوض معارك ضارية ضد البرجوازية فنشبت الحروب بين اسبانيا وبريطانيا والبرتغال، وساد عهد من القرصنة البحرية، واخيراً هزمت الرأسمالية البرجوازية فانهارت الامبراطورية الاسبانية وفقدت اسبانيا سيطرتها على مستعمراتها في اميركا وآسيا ، كما وان البرتغال لاقت المصير نفسه ، فاصبحت بريطانيا الدولة الاوروبية الاولى ذات المستعمرات، والامبراطورية التي لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها . وعقب ان انزلت الرأسمالية البريطانية تلك الهزيمةالشنيعة بالبرجوازية الاسبانية والبرتغالية بدأ صراع جديد بين الرأسمالية البريطانية والرأسمالية الناشئة في فرنسا وبدأت حرب باردة عنيفة بين الدولتين في عهد لويس السادس عشر،وكلنا يذكر انلويس السادس عشر قد أمد جورج واشنطن محررالولايات المتحدة الاميركيةفيثورتهضد بريطانيا بالمساعداتالمالية وبالسلاح.

وعقب إعدام لويس السادس عشر تحولت الحرب الباردة بين الرأسمالية البريطانية والرأسمالية الفرنسية الناشئة الى حرب ساخنة سالت فيها الدماء انهاراً، ولم تنته هذه الحرب الا في هزيمة نابليون في معركة « واترلو ». ومن الاشياء التي تلفت النظر وتسترعي الانتباه ان الرأسمالية البريطانية استعانت بالبرجوازية التي سبق لها أن هزمتها في حربها ضد الرأسمالية الفرنسية الناشئة . ولقد شاهد

القرن الثامن عشر والتاسع عشر انطلاقات استعمارية اوروبية جبارة فاحتلت هولندا الجزر الكبرى المعروفة اليوم باسم اندونيسيا، واحتلت بلجيكا الكونغو البلجيكي الغني باشجار المطاط .

وكلنا يذكر المآسي الانسانية التي اقترفها الاستعمار في المستعمرات. فالكونغو البلجيكي مثلاً كان عدد سكانه في بدء الاستعمار البلجيكي يبلغ خمسة وعشرين مليوناً، وقد تدنى هذا العدد خلال ثلاثين سنة من الاستعمار البلجيكي إلى تسعة ملايين نسمة .

وفيما يلي جدولان يدلان بوضوح على التوسع الاستعماري خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

السنة	انكلترا		فرنسا		المانيا	
	المساحة بملايين الاميال	عدد السكان بالملايين	المساحة بملايين الاميال	عـدد السكان بالملايين	المساحة بملايين الاميال	عدد السكان بالملايين
١٨١٥ – ١٨٣٠	?	١٢٦,٤	٠,٠٢	٠,٥	—	—
١٨٦٠	٢,٥	١٤٥,١	٠,٢	٣,٤	—	—
١٨٨٠	٧,٧	٢٦٧,٩	٠,٧	٧,٥	—	—
١٨٩٩	٩,٣	٣٠٩,٠	٣,٧	٥٦,٤	١,٠	١٤,٧

أما الجدول الثاني فيرينا التطور الذي طرأ على الاستعمار بين عامي ١٨٧٢ و ١٩١٤ والدول الجديدة التي بدأت تمارس سياسة الاستعمار .

وهذه هي صورته :

	المستعمرات			
	١٨٧٢		١٩١٤	
	كيلومتر مربع بالملايين	نسمة بالملايين	كيلومتر مربع بالملايين	نسمة بالملايين
انكلترا	٢٢,٥	٢٥١,٩	٣٣,٥	٣٩٣,٥
روسيا	١٧	١٥,٩	١٧,٤	٣٣,٢
فرنسا	٠,٩	٦	١٠,٦	٥٥,٥
المانيا	—	—	٢,٩	١٢,٣
الولايات المتحدة	—	—	٠,٣	٩,٧
اليابان	—	—	٠,٣	١٩,٢
بلجيكا وهولندا وغيرهما			٩,٩	٤٥,٣
اشباه مستعمرات الصين ، ايران ، تركيا			١٤,٥	٣٦١,٢

والآن لننظر كيف يعامـــل المستعمرون سكان المستعمرات ، وسأقصر مجالي هنا على أفريقيا ، إذ انني لا أملك اية مصادر إحصائية عن المستعمرات الأخرى خارج هذه القارة ، أضف الى ذلك ان هذه الاحصاءات تعبر عن وضع العمال الافريقيين في آخر النصف الاول من القرن العشرين، وهذا التاريخ له مغزاه بسبب ان الرأسمالية التي تضخمت على حساب المستعمرات قد رفعت من مستوى الاجور بالنسبة إلى مراحلها الاولى .

يتقاضى العامـل الاوروبي في اتحاد جنوبي افريقيا من شركات التنقيب عن الذهب حداً أدنى من الأجر يبلغ عشرين شلنـــاً في اليوم ، بينما يبلغ متوسط أجر العامل الافريقي في الشركة ذاتها شلنين وثمانية بنسات . وتفرض غرامة على كل صاحب منجم يمنح الافريقيين اجوراً تزيد على الاجور المحددة وذلك بغية إغرائهم على العمل في منجمه .

ثبت من البحث الذي أجراه مكتب الخدمة الاجتماعية لغير الاوروبيين وشؤون الوطنيين أن متوسط ديون العائلة الافريقية في ضواحي جوهانسبرغ بلغت ٢٠ جنيهاً و ١٧ شلناً و ٦ بنسات لكل عائلة .

ظهر من الاحصـــاءات ان الفقر المدقع هـو السبب الرئيسي لأمراض سوء التغذية بين الافريقيين في اتحاد جنوبي افريقيا . وقد دلت إحصاءات سنـة ١٩٣٩ ان نسبة الوفيات بلغت ٢٩,٢٩ بالالف ، بينما بلغت نسبة الوفيات بين الاطفـال ٢٩٦,١١ بالالـف ، كل ذلك حـدث وشركات التنقيـب عن الذهب قد حققت ارباحاً صـافية في تلك السنـة تجاوزت الخمسين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية .

لم يترك من الاراضي التابعة لقبائل بتشوانا في مقاطعـــة « بتشوانا لاند » والبالغة مساحتها ٢٧٥ ألفاً من الكيلومترات المربعة سوى مئة ألف كيلومتر مربع، أما المتبقي فقد استولى عليه البيض من الانكليز .

يجب على كل افريقي يعيش في منطقـة روديسيـــا الجنوبية أن يدفع

ضرائب تبلغ نحو عشرين شلناً سنوياً ، يضاف اليها عشرة شلنات عن كل زوجة وخمسة شلنات عن كل كلب يملكه ، وإذا لم يسدد الضريبة في مدى شهر من تاريخ استحقاقها عوقب بغرامة قدرها عشرة جنيهات او بالحبس مدة ثلاثة اشهر .

يتوجب على كل الافريقيين الذين ولدوا خارج روديسيا الجنوبية ويريدون دخولها ان يتقدموا بطلب للتصريح لهم بدخولها من إدارة الشؤون الوطنية ، فاذا حصل أحدهم على إذن بالدخول فله الحق في الاقامة مدة لا تزيد عن ثلاثين يوماً للبحث عن عمل . واذا لم يحصل على عمل حتى انتهاء المدة قبض عليه بجريمة التشرد ، والقي به في السجن ، ومن ثم نفي من البلاد .

لا يحق للافريقيين في روديسيا والساكنين في المدن الخروج من منازلهم بين الساعة التاسعة والخامسة صباحاً .

صدق البرلمان البريطاني بأكثرية ساحقة قانوناً يعرف باسم « قانون تسجيل اللوائح » ويسمح هذا القانون للنساء بانشاء دور البغاء وتقديم الخليلات لعمال المناجم ، ويحق لكل رجل أن يختار امرأة لتعيش معه ، وليس عليه أية مسؤولية مادية او أدبية نحوها او نحو أطفاله منها ، إذا أنجب اطفالاً .

يحصل العمال الافريقيون في زراعة التبغ على أجر قدره ١٢ شلناً وستة بنسات في الشهر .

يملك في روديسيا عشرون الفاً من الاوروبيين مساحة من الارض الزراعية تبلغ ٢,٥ مليون فدان انكليزي .

يتقاضى العمال الاوروبيون في مناجم النحاس مرتباً شهرياً يتراوح بين ٤٠ و ٧٠ جنيهاً شهرياً ، بينما يبلغ مرتب العامل الافريقي جنيهين ونصف الجنيه تقريباً .

يتوجب على كل افريقي في تنجانيقا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره أن

يدفع سنوياً ضريبة قدرها جنيهاً واحداً وخمسة عشر شلناً ، ويبلغ متوسط الدخل الشهري لمثل هذا الافريقي ما يقارب ثلاثة ارباع الجنيه .

هذا غيض من فيض ، ولو أردت ان أعدد جرائم الاستعمار ومخازي المستعمرين في المستعمرات لاستغرقني هذا العمل شهوراً وسنين .

٢ – قانون المزاحمة والمنافسة :

قلت في مطلع بحثي ان الرأسماليين لا يعيشون على دماء الطبقة العاملة ويتغذون بلحوم سكان المستعمرات فحسب ، بل انهم يلتهمون بعضهم بعضاً ايضاً . فكل مشروع صناعي يجد في مثيله من المشروعات الصناعية منافساً له ومزاحماً ، لذلك يسعى بكل ما اوتي من جهد لتصفية هذا المشروع والاستئثار بالزبائن والاسواق ، وذلك كله حباً في اجتناء الارباح . وقد لاحظ « لويس بلان » الاشتراكي الفرنسي خطأ آدم سميث في تقريره بأن المنافسة والمزاحمة تؤديان الى انخفاض في مستوى الاسعار ، فلقد كتب « لويس بلان » عام ١٨٤٠ ينتقد هذه النظرية ويقول :

« ليس تدني الاسعار ، في عهد حرية المزاحمة ، إلا حسنة موقتة ووهمية خادعة ، فالمنطق الرأسمالي يحافظ على هذه الحسنة ويلزمها ما بقي التصارع والمنافسة ، وما ان يتغلب أغنى الرأسماليين على أخصامه ويخرجهم من ساح المعركة ، حتى تأخذ الاسعار في الارتفاع . فالمنافسة تؤدي إلى احتكار ، وتدني الاسعار – للسبب نفسه – يؤدي الى ارتفاعها ، وهكذا فان السلاح الفتاك الذي كان يهدد به بعض المنتجين بعضهم الآخر يصبح اداة لانقاذ المستهلكين وسبباً من اسباب بؤسهم وشقائهم . »

ونحن اذا ما اردنا ان نفتش عن اسباب جميع الحروب منذ ان عرف التاريخ التنظيم الرأسمالي للمجتمع والدولة فاننا نرد اسباب كل حرب الى هذا القانون –قانون المنافسة والمزاحمة .وانني هنا ارى من الفائدة ان أنقل من جديد

تحليلي للأحداث العالمية عقب الحرب العالمية الاولى ، هذا التحليـل الوارد في كتابي « الاهداف الاستعمارية وراء مشروع مـــارشال » والصادر عن دار اليقظة العربية بدمشق وذلك من الصفحـة ٣١ الى ٤٦ ، والذي قد يساعـد القارىء على تفسـير اسباب الحرب العالمية الثانية على ضوء قانون المنافسة والمزاحمـة :

« تعاقبت الشهور والسنون ولمس الرأسماليون الاميركيون ان الرئيس روزفلت قد فشل في تدعيم مركزهم وتوسيع نفوذهم وترويج تجارتهم ، وتبين ان الحل الذي جاء به برنامجه المعروف بـ« نيو ديل » (New Deal) لم يكن سوى مسكن لمرض عضال مزمن . وقابلوا بين الانتاج الاميركي الحالي وقدرته على غمر الاسواق العالمية وإجتناء الارباح ، وبين الكمية القليلة التي يبيعونهـا ويصدرونها فتحسروا وتـألموا ، واخيراً هدتهم غريزة حب الكسب الى الاسباب الحقيقية التي تقف بينهم وبين تحقيق اهدافهم ، وكان أحد هـذه الاسباب هو الحرب اليابانية في الصين ، هذه الحرب التي حالت دون استقرار رؤوس أموالهم فيها واستثمار اسواقها الداخلية الواسعة، وتجنيد ال ٤٥٠ مليوناً من سكانها في عداد مستهلكي البضائع الاميركية . كما وان نمو الصناعـة اليابانية وتقـدمها السريع أرهب رأسماليي اميركا وبريطانيا، وتحققوا من ان اليابان إذا بقيت تتابع خطاها في هذا المضمار فستخلق لهما مشاكل معقـدة وازمات مدمرة لا طاقة لهما على تحملها ومواجهتها ، وذلك لان الصناعة اليابانية تمتاز عن الصناعتين الاميركية والبريطانية بعامل هام ألا وهو رخص أجور الايدي العاملة اليابانية ، وهذا مما يجعل تكاليف الانتاج زهيدة وثمنها في الأسواق العالمية رخيصاً ، وبذلك تتمكن البضائع اليابانيـة من منافسة البضائع والسلع الأميركية في الأسواق العالمية .

وكانت الولايات المتحدة تعلم مدى فقر اليابان في المواد الأولية اللازمـة للصناعة ، ولذلك كانت تنتظر الغزوات اليابانية لطرد الانكليز والهولانديين والفرنسيين من مستعمراتهم في المحيطين الهندي والهادي ، بغية ان تحـل

اليابان محلهم لان إمكانات تلك المستعمرات الدفينـــة منها والمستغلة كانت تغري المغامرين اليابانيـين على احتلالها واستعمارها لضمان مواد الخـــام والاسواق ، ولهذا فلقد كانت خطة اليابان التوسعية تستهدف تحقيق أمرين، الأول : تأمين المواد الأولية للصناعـة اليابانية عن طريق إحتـلال الممتلكات والمستعمرات الهولاندية والبريطانية والفرنسية ، أما الأمر الثاني فهو إيجـاد الاسواق لتجارتها لتمكين صناعاتها من التقدم والنمو ...

وكانت الرأسمالية الأميركية ترقب تقدم الجيوش اليابانية في الصين بقلب واجف خائف ، وكان التناقض المتزايد في صادرات أمـيركا إلى ذاك القطر يقدم إلى أرباب الصناعات الاميركيين الدليل المادي على إجرام اليابان بحقهم وحرمانهم من جزء غير يسير من الارباح التي كان باستطاعتها اجتناؤها فيما لو لم تقدم اليابان على غزو الصين .

وقد اظهر واقع الحال للطبقة المالية الأميركية حدة الكوارث والازمات التي ستـنزل بها فيما لو تركت اليـابان تبتلع الصـين حيث خشيت الشركات الاميركية ان تتجه الجيوش اليابانية عقب تصفية الصـين إلى ابتلاع ممتلكات ومستعمرات بريطانيا وهولاندا وفرنسا، وهذا مما سيقضي على ملايين الدولارات الموظفة في تلك الممتلكات والمستعمرات، لذلك أخذت الحكومة الاميركية تمد الصين بالمساعدات المالية والحربية معتبرة الجمهورية الصينية الخط الدفاعي الاول عن مصالحها الحيوية في الشرق الاقصى .

ونشأ ايضاً في القارة الاوروبية منافسان خطران للولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا ، وأعني بهذين المنافسين المانيا النازية وايطاليا الفاشستية ، واتفقت هاتان الدولتان مع اليابان على اقتسام الامبراطوريات المالية الثلاث : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، وتوزيع ممتلكاتها ومستعمراتها ومنشآتها الصناعية فيما بينها ، فكان من المتفـق عليـه ان تصبح الامبراطوريتـان البريطانية والفرنسية في افريقيا والشرق الأوسط من نصيب الرأسماليتين الالمانية والايطالية ، أما الأمبراطورية الهولاندية وممتلكات بريطانيا في جنوبي شرقي آسيا والفيلبين

والصين فكان من المقرر أن تكون حصة اليابان ، لذلك اصبح الصراع بين المانيا واليابان من جهة ، والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا من جهة اخرى مرتقباً ومنتظراً .

وكانت رؤوس الاموال الالمانية قد استطاعت قبل نشوب الحرب بأعوام قلائل ان تستعيد مكانتها السابقة في البلقان ودول وسط اوروبا وأميركا الجنوبية ، وقد مكن المانيا مركزها الجغرافي في قلب اوروبا وقوتها العسكرية الضخمة ونهضتها السياسية من ان تعقد معاهدات تجارية مع معظم دول اوروبا ، وهذه المعاهدات خلقت للدولتين الاوروبتين بريطانيا وفرنسا المشاكل والازمات ، فأقفلت معظم دول البلقان اسواقها في وجه السلع البريطانية والفرنسية وحتى الاميركية .

واستطاعت التجارة الالمانية ان تتسرب عن طريق ايطاليا إلى البلدان الواقعة في آسيا وافريقيا ، وكان لجودة السلع الالمانية والسمعة التجارية الطيبة التي تتمتع بها هذه الدولة أثر بالغ في ترويج التجارة الالمانية ، واتبعت المانيا خلال الحكم النازي طريقة المقايضة والمبادلة في تجارتها الخارجية ، وجاء خروجها عن قاعدة الذهب كأساس لنقدها ضربة شديدة نزلت بالتجارة الدولية ، فكانت المانيا تستورد ما تشاء من البضائع والسلع ، وتسترد أثمان مستورداتها بضائع استهلاكية ذات دورة واحدة ، وكثيراً ما كان يحدث أن تدفع المانيا الاسبرين والايتبرين ثمناً لوارداتها من البترول والغذاء الخ ...

وهذا النوع من المعاملات التجارية المدعومة بالقوة السياسية والتهديد العسكري جعل من معظم جارات المانيا زبائن وعملاء لها ، وكادت المانيا خلال الحكم النازي تحتكر معظم الاسواق الاوروبية ، فسيطرت شركاتها الكهربائية على معظم دول اوروبا وتدنت مقادير الصادرات الانكليزية والفرنسية والاميركية الى اوروبا إلى ما يقارب النصف ، لهذا اصبح القضاء على المانيا أغلى ما للامبراطوريات المالية الثلاث من أمنية .

اما ايطاليا الفقيرة ذات الصناعة المفتعلة والهزيلة فلقد حاولت ان ترفع ظلم الطبيعة عنها باتباع خطط توسعية وتنفيذ برامج استعمارية . وكانت الولايات المتحدة لا تكترث او تعير أدنى التفات لحركات ايطاليا ومظاهراتها السياسية لانها كانت متيقنة من ان هناك استحالة مادية تحول دون تحول ايطاليـــا الى دولة صناعية وذلك لانعدام المواد الاولية والطـــاقة المحركة فيها ، لهذا كان من الصعوبة بمكان ان تتمكن ايطاليا من المنافسة والمزاحمة في الاسواق العالمية لان انتاجها سيكون باهظ التكاليف ، لان معظم الصناعات الايطـالية كانت تدار بالفحم المستورد من المانيـا وانكلترا ، وبالبترول المبتاع من الشركات الاميركية الانكليزية الهولاندية .

غير ان الرأسمالية الايطالية وجدت انها إذا استطاعت ان ترث الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية وان تحـــل مكانها في استعمار ممتلكاتها ومستعمراتها فقد تستطيع ان تدعم مركزها الصناعي . فاقدمت ايطاليـا في ساعة طيش ولحظـة عاقة على إحتلال الحبشة ضاربة بتهديدات عصبة الامم وعقوباتها الاقتصادية .

وقد يتساءل القارىء لماذا خذلت عصبة الامم الحبشة ؟

ان سبب خذلان عصبة الامم للحبشة يعود الى ان الحكومتين البريطـانية والفرنسية قد وجدتا ان مغامرة ايطاليا في الحبشة مغـامرة فاشلة من الوجهة الاقتصادية ، كما وان احتلال الحبشة قد عجل بحلول الازمة الاقتصادية في ايطاليا ، فلقد بلغ العجز السنوي في موازنة الحكومة الايطالية لعام ١٩٣٥ ثلاثة مليارات « لير » وهبطت قيمة الذهب المخزون في ايطاليـا والاسهم والسندات المعتبرة قيمتها ذهباً من ١١٠٦١ مليون « لير » عـام ١٩٢٨ الى ٤٠٢٢ مليون « لير » في اذار من عام ١٩٣٧ (وهذه الاحصاءات مـأخوذة عن النشرة السنوية للاحصاءات الصادرة عن عصبة الامم السابقـة ، لعام (١٩٣٧ – ١٩٣٨) وعلينا ان لا ننسى اسقاط ثلث قيمة المبلـغ المتبقي بسبب تدهور قيمة اللير الحقيقية الى ما يقارب ثلثيها . كما ان صناعة السيـارات الايطالية التي كانت

الاولى عام ١٩٢٢ من حيث الطاقة الانتاجية ، تدنت هذه الطاقة الى ما يقارب الثلثين عما كانت عليه عام ١٩٢٧ إذ انتجت في ذلك العام ٦٥ ألفاً من السيارات بينما لم تتمكن في عام ١٩٣٦ من انتاج سوى ٤٨ الف سيارة كما وان قيمة الصادرات الايطالية الشهرية هبطت من ١٣٠٢ مليون لير عام ١٩٢٧ إلى ٤٥٥ مليون لير عام ١٩٣٦ أضف الى ذلك ان ايطاليا لم تكن في تلك السنة وفي السنوات التي اعقبتها تملك اي نقد اجنبي او اعتمادات في بنوك اجنبية .

هذه الازمة الاقتصادية الخانقة دفعت بالرأسمالية الايطالية الفقيرة الى المقامرة والمغامرة في خوض حرب عالمية قد تعود عليها في حالة النصر ببعض الفوائد والارباح .

اما الولايات المتحدة فلم يكن لديها اي سبب لمحاربة ايطاليا واذلالها في حلبة الكفاح العالمي، لان اميركا كانت تدرك ان الحرب مع ايطاليا هي حرب عديمة الفائدة وغير مجدية ، فالولايات المتحدة لم تكن تخشى مزاحمة ايطاليا الصناعية والتجارية كما كانت تخشى مزاحمة اليابان والمانيا في هذين الحقلين . وكلنا نذكر محاولات الرئيس روزفلت لتجنيب ايطاليا دخول الحرب العالمية الثانية ولكن المانيا التي كانت تفتش لها عن حليف مهما كان نوعه او قوته رحبت بايطاليا ترحيباً حاراً، فارتمت الفاشستية في احضان النازية وتعانقتا والعسكرية اليابانية، واعلنت الرأسماليات الالمانية والايطالية واليابانية الحرب على الامبراطوريات المالية الثلاث اميركا وبريطانيا وفرنسا مدفوعة بقانون المنافسة والمزاحمة على الاسواق والمرابح .

٣ – قانون التمركز على الانتاج وحصره

إن قانون المنافسة الذي يدفع بالشعوب والأمم إلى خوض غمرات الحروب من أجل الرأسمالية والرأسماليين ، يدفع ايضاً بالشركات الى الاصطراع والصراع بعضها ضد بعض ، إذ تحاول الشركات الكبرى تصفية الشركات

الصغيرة او المتوسطة وذلك إما عن طريق ابتلاعها بشراء اكثرية اسهمها او عن طريق منافستها منافسة شديدة بحيث تؤدي بالتالي إلى افلاس الشركات الصغيرة او المتوسطة ومن ثم انهيارها انهياراً كلياً كاملاً .

وعن قانون التمركز والقدرة على الانتاج وحصره تنشأ الاحتكارات في كل اشكالها من شركات متحدة (Corporation) وموحدة (Trust) وقد لخص الاقتصادي الالماني هلفردنج المزايا الاساسية للنظم الاحتكارية بالنقاط التالية :

١ – تسوية تقلبات التجارة وبذلك يكفل للمشروعات نصيباً من الربح اشد ثباتاً واستقراراً .

٢ – يترتب على هذا النظام القضاء على المنافسة والمزاحمة في الاسواق الداخلية والخارجية .

٣ – يجعل في الامكان اجراء التحسينات الفنية مما يؤدي الى اجتناء مرابح اعلى مما تحصل عليه المشروعات الخلص (غير المتحدة والموحدة).

٤ – يزيد من قوة مركز المشروعات المتحدة والموحدة إزاء زميلاتها الخلص ويجعلها أقدر على المنافسة في فترات الكساد الخطيرة حينما لا يتمشى هبوط اسعار المواد الاولية مع هبوط اثمان السلع المصنوعة .

وتلعب المصارف الكبرى دوراً كبيراً في تحقيق اغراض الشركات الموحدة والمتحدة لتصفية الشركات الخلص إذ ان المصارف تعمد في اوقات الازمات إلى منع القروض عن الشركات الخلص اولاً ، وتقوم بمطالبة هذه الشركات بتسديد ما عليها من ديون ، وبهذا تدفع بالشركات الخلص الى الافلاس والانهيار ، وإفلاس مثل هذه الشركات الخلص يؤدي إلى افلاس المصارف الخلص ايضاً ، فالشركات المتوسطة والصغيرة تتعامل عادة مع المصارف المتوسطة والصغيرة ، لذلك فان افلاسها يؤدي حتماً الى افلاس المصارف التي تتعامل معها ، وبهذا يتركز المال العامل في المصارف المتحدة والموحدة كما تتركز المشروعات الصناعية في الشركات المتحدة والموحدة . وكثيراً ما تعمد الشركات المتحدة والموحدة

الى افتعال الازمات الاقتصادية بغية تحطيم الشركات الخلص ، إذ تقدم الشركات الموحدة والمتحدة على إغراق السوق بالسلع والبضائع لفترة معينة، وهذه العملية تقود الى إنخفاض سعر السلعة الى ما دون قيمتها الحقيقية، وهذا ما يعني الخسارة. ولما كانت الشركات الخلص لا تستطيع احتمال الخسائر لفترة زمنية طويلة ، ولما كانت ابواب المصارف الكبرى مغلقة في وجهها للاستدانة والقروض ، لذلك سرعان ما تفلس هذه الشركات الخلص وتخلي الطريق امام الشركات الموحدة والمتحدة لتستأثر بالاسواق والمرابح . أضف الى ذلك ان الشركات الموحدة او المتحدة والتي توظف الآف العمال والتي تعمد الى وسيلة للانتاج الغزير (Mass Production) فتغدو-نتيجة لوسيلة الانتاج الغزير تكاليف صنع السلعة- اقل بكثير من تكاليف السلعة التي تصنعها الشركات الخلص، والتي لا تمكنها طاقات رأسمالها من اللجوء الى وسيلة « الانتاج الغزير » وهذا ما يعني استيلاء الشركات الموحدة او المتحدة على زمام المبادرة في الاسواق وإغلاق الاسواق امام منتجات الشركات الخلص .

وكلنا يذكر اثر الاحتكارات الرهيب المدمر خلال الأزمة البترولية بين ايران وشركة البترول « الانغلو ايرانية» فقبل ان يقدم مصدق رئيس وزراء ايران على تأميم البترول الايراني كانت ايران الدولة الاولى المنتجة للبترول في الشرق الأوسط ، ولكن ما كاد مصدق يؤمم البترول الإيراني حتى غدت ايران الدولة الأخيرة في انتاج البترول في هذه المنطقة ، وسبب ذلك ان الشركات البترولية الكبري من اميركية وبريطانية وهولاندية وفرنسية تكون اتحاداً يحتكر السوق العالمية احتكاراً كلياً شاملاً، ويقوم هذا الاتحاد بمراقبة السوق العالمية ودراسة احتياجاتها المتزايدة من البترول ، وهو يوازن دائماً بين التوسع في انتاج البترول وبين حاجات السوق بحيث لا يطغي الانتاج على حاجة السوق فينخفض السعر العالمي للبترول، لذلك وعندما اقدم مصدق على تأميم البترول في ايران وجّه الاحتكار البترولي الغربي ضربة رهيبة اليه ، وجاءت هذه الضربة متمثلة في إغلاق السوق الدولية في وجه البترول الايراني ، فلم تستطع ايران ان

تبيع سوى كميات جد قليلة من بترولها ، وتدنى انتاج ايران من البترول مما يقارب ٤٥ مليون طناً سنوياً الى ما يعـادل الثلاثة ملايين طناً ، ولكي تعوض الشركات الكبرى النقص من البترول الذي نشأ عن تأميم مصدق للبترول أقدمت على التوسع في انتاج البترول في كل من المملكة العربية السعودية والكويت والعراق . ولذلك فنحن إذا ما درسنا الزيادة في انتاج هذه البلدان من البترول نكتشف ان هذه الزيادة تعادل كمية البترول الايراني المنتج قبل التـأميم مضافاً اليها حاجات السوق الدولية المتزايدة .

ويرى الاشتراكيون ان التنظيم الرأسمالي اذا ما تابع سيطرته على الاقتصاد العالمي فانه ستتحكم شركة موحدة واحدة بمقـدرات العالم الاقتصادية ، وهذا التحكم والسيطرة يفرضه احد القوانين الهـامة الذي تتمشى وفقه الانظمة الرأسمالية في العالم ، وأعني به قانون التمركز والقدرة على الانتـاج وحصره . لذلك كان الاشتراكي الفرنسي « لويس بلان » جد مصيب عندما قال ان المنـافسة والمزاحمة لا تقودان إلى تخفيض الاسعار ، بل انما تقودان الى الاحتكار والنظم الاحتكارية ، وان تخفيض الاسعـار هو حالة وقتية لاعادة رفعهـا .

٤ – قانون السعر المخفض

يقول هذا القانون بالمحافظة على الارباح مع انمائهـا ، وذلك عن طريق التوسع الميكانيكي في الانتاج وتقليص استعمال اليد العاملة . اما مـا ينشأ عن انخفاض في تكاليف السلعة عن طريق تقليص الاجور الناشىء عن الاستعـاضة بالآلة عن العمال فهو الذي يؤدي الى تخفيض سعر السلعة ، وبذلك يحـافظ الرأسماليون على ارباحهم دون ان يؤثر تخفيض سعر السلعة على مقـادير الارباح التي تدخل عليهم ، وهذا كله بسبب ان المشكلة قد حلت عن طريق تقليص اليد العاملـة ، وبالتالي الانحدار بالتكاليف عن طريق

الاستغنـــاء عن دفع الاجور لعمال حلت الآلة محلهم . اما الآلة الجديدة فانها تتحول الى رأس مال ثابت ليسد ثمنه بعد مضي وقت قليل من ادخاله حقل الانتاج .

ولنضرب الآن مثلاً على ذلك :

لنقل ان هناك رجلاً يملك مصنعاً لصنع الاحذية ويعمل في هذا المصنع عشرون عاملاً اجر العامل خمس ليرات سورية، وينتج عشرة ازواج من الاحذية يبيع الزوج الواحد منها بعشرين ليرة سورية ، وبربح قدره خمس ليرات سورية في الزوج الواحد. من هذا المثل ينشأ ما يلي:

اجرة العـــمال : ١٠٠ ليرة سورية

ثمن المواد الاولية : ٢٥٠ ليرة سورية

الربح : ٠٥٠ ليرة سورية

بذلك يكون المجموع : ٤٠٠ ليرة سورية

ولنفرض ان صاحب هذا المصنع استورد آلة لصنع الاحـذية وهدفه على الاقل سيكون المحافظة على ربحه الذي اعتبرناه خمسين ليرة سورية ، وقد ادت هذه الآلة الى الاستغناء عن ١٨ عاملاً وأبقت على عاملين لإدارتها ، ولنعتبر ان هذين العاملين باعتبارهما عاملين فنيين سيتقاضيان اجراً مضاعفاً للأجر الذي كان يتقاضاه العاملان في الورشة غير الآلية، عندئذ تصبح العملية على الشكل التالي:

أجرة العاملين + استهلاك الآلة (مقدراً بخمس ليرات)	=	٠٢٥ ليرة
ثمن المواد الاولية ولنعتبر هذا الثمن لم يتغير	=	٢٥٠ ليرة
الربح الثابت لصاحب العمل	=	٠٥٠ ليرة
مجموع تكاليف صنع العشرين زوجاً « من الأحذية »	=	٣٢٥

سعر الحذاء المخفض= $\frac{٣٢٥}{٢٠}$ = ١٦,٢٥ ليرة سورية إذن يكون قد خفض سعر الزوج من الحذاء ٣,٧٥ ليرة سورية ، وذلك دون ان يتأثر ربح صاحب مصنع الاحذية ، إذ انه حافظ على مستواه الذي هو خمسون ليرة سورية ، كما

وأنه قد حقق بالاضافة الى ذلك كسباً آخر هو انماء رأس ماله العامل الذي هو الآلة في هذا المثال .

مما ورد يتضح ان الآلة تشكل عاملاً أساسيـــاً في تحقق السعر المخفض بغية الربح .

ومن الجدير بالذكر ان الرأسماليين في مراحل الصناعة الاولى كانوا يعمدون الى تطبيق هذا القانون عن طريق تنفيذ المبدأ القائل :

« اكبر قدر من ساعات العمل لقاء أقل قدر من الأجور » .

لا شك ان القاريء الكريم يدرك مما اوردناه من شرح للقوانين الأربعـة التي تنظم نشاطات النظام الرأسمالي مدى التناقض الحاد الذي يكتنف هذا النظام ، ولا بد لهذه المتناقضات من القضاء عليه ، وذلك اذا ناهضت الشعوب والأمم بعزم واخلاص محـــاولات الرأسماليين اليوم للقضاء على العالم بواسطة حرب هيدروجينية لا تبقي ولا تذر .

د ـــ محاولات لكنها فاشلة

تشعر الانظمة الرأسمالية اليوم بدنو اجلها المحتوم ، ولذلك فهي تحـاول ان تمنع او تؤخر على الاقل المصير القاتم الرهيب الذي ينتظرها على ايدي الشعوب ، لذلك فانها تتستر احياناً تحت الاشتراكية المزيفة والمحاولات الاصلاحية الفاشلة . وكان اول « مصلح » (اذا سلمنا ان الرأسمالي يمكن ان يكون مصلحـاً) هو هنري فورد صاحب مصانع السيارات المشهورة ، اذ لمس هذا الصناعي الاميركي ان سير الصناعات ونموها مرتبط ارتباطاً مباشراً بالقدرة الشرائية للفرد ، لذلك استن هنري فورد دستوراً يقول برفع مستوى الاجـــور وتخفيض ثمن السلعة وتحقيق الارباح على حساب التوسع في الانتاج . لذلك أقدم فورد بصورة مفاجئة

على رفع اجور عماله ١٠٠ ٪ وكانت هذه المحاولة التي قام بهـا هنري فورد تعتبر بمثابة جنون مطبق لدى زملائه من الرأسماليين، لكنها كانت محاولة ناجحة ارغمت الكثيرين من زملائه على اتباعها ومن ثم تعميمها . ولكن هل استطـاعت هذه المحاولة ان تجنب الولايات المتحدة الاميركية الازمات ؟ ان مبدأ السعي لتحقيق الربح كان ابدأ المسيطر المتحكم، وهذا المبدأ سرعان ما يهدم كل محاولة اصلاحية. فالتوسع بالانتاج يقتضي تعميم الآلة في الصناعات ، وتعميم الآلة يؤدي الى طرد العدد الغفير من العمال، وطرد مثل هذا العدد يؤدي الى انتشار البطالة، وانتشار البطالة يؤدي الى هبوط القدرة الشرائية ، وهبوط القدرة الشرائية يؤدي بالتالي الى الكساد .

وهكذا فان عمل هنري فورد ذاك يعتبر كعمل الثعلب الذي اراد ان يقسم قالب الجبن بالتساوي بين الهرتين مستعملاً الميزان، فكان ان الثعلب لم يستطع ان يوازن بين قطعتي قالب الجبن، لذلك كان يعمد الى تحقيق هذا التوازن آناً بالتهام جزء من هذه القطعة، واخرى بالتهام جزء آخر من القطعة الثانية، وكان الثعلب خبيثاً اذ انه كان يلتهم دائماً على صورة تجعل القسمة بين الهرتين لا يمكن ان تتساوى او تتوازن. وكانت النتيجة ان التهم الثعلب كامل قالب الجبن دون ان يستطيع تحقيق التوازن بين قطعتيه، وهذا هو حال الرأسمالية.

وجاء عقب هنري فورد الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت ليحل الازمة الاقتصادية الآخذة بخناق الأمة الاميركية وجاء بمشروعه المعروف باسم «نيوديل» (Newdeal) ، واقدم ورفيقه هاري هوبكنز على اعتماد سيـاسة الصدمة والاحسان بغية التفريج من الازمـة فخصص ٣٣٠٠ مليون دولار للتعمير والعمران. وزاد الدين الوطني بنسبة ٥٠ ٪ وقام بكهربة سد وادي « التنسيه » وخفض قيمة الدولار ٤٠ ٪ كي يمكن الفلاحين والمشروعات من تخفيض ديونها الحقيقية الى نسبة ٦٠ ٪ .

ولكي يوازن روزفلت بين الانتاج والاستهلاك استصدر القانون المعروف باسم « النقـاهة الصناعية الوطنية » (National Industrial Recovery)

وحدد هذا القانون حداً ادنى للاجور ، ومعدلاً اعلى لساعات العمل ، فتدنت ساعات العمل من ٥٦ ساعة في الاسبوع عـام ١٩٢٩ الى ٢٥ ساعة في الاسبوع عام ١٩٣٦ ، واباح لقاء ذلك انشاء التروستات الذي كان يحرمه القانون المعروف باسم قانون « كلايتون » وذلك بغية عـدم السماح بالمنافسة والمضاربة ، وسمح للشركات بان تعقد اتفاقات خاصة فيما بينها وبين موزعي البضائع لضمان استقرار في الاسعار ، ولكن هل استطاع روزفلت ان يحل الازمة حلاً جذرياً ؟ ان الاحصاء التالي الوارد في كتاب « المشاكل الاقتصادية الاميركية » ليظهر مدى « النجاح » الذي لاقاه روزفلت ومشروعه « نيوديل » :

كان عدد العاطلين عن العمل عام ١٩٢٩ والمسجلين في النقابات يبلغ ١٣,٨ مليون عامل انخفض عددهم عام ١٩٣٩ الى ١٠,٦ .

ويأتي هتلر وموسوليني من بعده ويعمدان الى سياسة إقتصاد الدولة لمعالجة مشاكل بلادهما الاقتصادية ، ولكن الى اين ينتهي بهما المطـاف ؟ إلى الحرب ، الحرب العالمية الثانية التي تدخلها الولايات المتحدة الاميركية فتتلاشى في أميركا البطالة ، ويهبط فجأة عدد العمال العاطلين عن العمل من ١٠,٦ مليون عامل عاطل عن العمل عام ١٩٣٩ إلى صفر مليون عامل عـاطل عن العمل عام ١٩٤١ . **لا سبيل للرأسمالية اذن غير الحرب لتحقيق السلام بين المتناقضات التي تكتنف جوهرها** . وعلى الشعوب **ان تدفع الدماء والدموع والعرق لاحلال السلام بين المتناقضات في النظام الرأسمالي** .

واليوم نرى الولايات المتحدة الاميركية تتبنى شتى المشاريع : من مشروع مارشال ، الى النقطة الرابعة ، الى مشروع ايزنهاور ، الى مشروع المساعدات والمنح الأميركية للدول « الصديقة » ، وذلك كله بغية الإبقاء على دوران عجلات الآلة في الولايات المتحدة وتجنب العمال البطالة والبضائع الاميركية الكساد .

ولكن هل نجحت كل هذه المشروعات ؟ ان الاحصاءات الأخيرة تقول بأن عدد العمال المتعطلين عن العمل قد تجاوز الخمسة ملايين عـامل . فهل ستنفجر

الرأسمالية وتطتاير شظاها وتصبح هباءً منثوراً ؟ ام ان الرأسمالية كعـادتها ستفجر هذا العالم وتحيله الى مقبرة للبشرية ؟ ان الشعوب والامم الواعية وحدها تستطيع ان تجيب على هذا السؤال .

د ـ احتكار واحد :

قلنا فيما تقدم إن قانون المنافسة ينظم علاقات المشروعات بعضها ببعض على اساس المزاحمة على الاسواق الداخلية ، ويدفع بالتـالي بالدول ذات الانظمة الرأسمالية الى الصراع والحروب بعضها ضد بعض بغية الاستئثار بالمستعمرات التي تؤمن لها اسواقاً خارجية ومواد اولية . غير اننا نلمس اليوم ونرى بأم أعيننا ان معسكراً واحداً ينتظم جميع الدول الرأسمالية تقريباً واعني بهذا المعسكر ، المعسكر الغربي ، وأنه لا أثر لخلافات جوهرية بين اعضاء هذا المعسكر . وقد رأينا دول المعسكر الرأسمالي جميعاً تعقد بينهـا الأحلاف العسكرية كحلف الأطلنطي ، وميثاق بغداد ، وحلف جنوبي شرقي آسيا ، وغيرها من الأحلاف الاقتصادية والسيـاسية والثقافية ، فهل سبب هذا الوفاق بين الانظمة الرأسمالية في البلدان الغربية يعود اولاً واخيراً إلى خوف هذه البلدان من اجتياح جيوش المعسكر الاشتراكي لبلادها ؟

انني أرى ان هذا ليس بالسبب الجوهري الوحيد الذي يدعو هذه البـلدان الرأسمالية الى تناسي خلافاتها ونبذ قانون المنـافسة ، هذا القانون الذي يعتبر قانوناً جوهرياً يسير بموجب منطوقه النظام الرأسمالي في كل بلد وقطر ، بل ان هناك سببا جوهريا آخر وهو ان العالم الغربي بمجموعه وبكل ما يملك من مشروعات وشركات قد اصبح « تروست » اميركيا واحداً وشركة اميركية موحدة واحدة .

لقد اشار الاشتراكي الفرنسي « لويس بلان » الى ان قانون المنافسة يؤدي حتماً إلى قانون التمركز والاحتكار ، وان الشركات في الدول الرأسمالية تصفي القوية منها الضعيفة ، وهي تتجه وفق هذا القانون لتصبح اخيراً بمجموعها شركة موحدة (تروست) واحدة . وهذه الحقيقة تنطبق على الدول الرأسمالية كما تنطبق على الشركات في الدولة الرأسمالية ايضاً .

فعقب الحرب العالمية الثانية خرجت جميع الدول الرأسمالية من بريطانية وفرنسية وهولاندية والمانية ويابانية وبلجيكية وغيرها، مفلسة مدينة. فبريطانيا وحدها كانت مدينة للولايات المتحدة وللعالم باكثر من عشرين مليارا من الجنيهات الاسترلينية، وعمدت بريطانيا نتيجة لديونها الهائلة هذه الى اتباع نظام شديد من التقنين بغية موازنة ميزان مدفوعاتها ، غير ان هذه التدابير القاسية لم تفلح إذ كتبت جريدة « الايكونومست » في عددها الصادر بتاريخ ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٤٦ مقالاً قالت فيه ان الديون البريطانية تتزايد يوماً بعد يوم، وان ميزان تجارتنا الخارجية في عجز مستمر ، لذلك اضطرت بريطانيا الى بيع الكثير من شركاتها العاملة في الخارج فباعت في ٦ تشرين الاول[1] سنة ١٩٤٥ جميع ما تملك من استثمارات في الصناعات الكندية بمبلغ قدره مليار دولار، ومن ثم باعت للمكسيك شركة الخطوط الحديدية بمبلغ عشرة ملايين دولار[2]، وذلك بتاريخ العشرين من ايار ١٩٤٦. وفي الثالث من ايلول عام ١٩٤٧ اعلن رئيس الجمهورية المكسيكية ان اتحاد جمهوريات المكسيك قد ابتاع من من بريطانيا وهولاندا آبار الزيت المكسيكي بمبلغ ٢٥٠ مليون دولار [3].

واضطرت بريطانيا تحت ضغط الازمة الخانقة التي كانت تعانيها ان تقدم على عمل لا مثيل له في تاريخها إذ أنها باعت في ١٥ أيلول عام ١٩٤٧ الى البنك

---

١) التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ – ١٩٤٧ صفحة ٢٩٨ .
٢) التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ – ١٩٤٧ صفحة ٣٠٩ .
٣) التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ – ١٩٤٧ صفحة ٣٤٥ .

الأمـــيركي المعروف باسم « فيدرال ريزرف بنك اوف نيويورك »

(Federal Reserve Bank of New York)

ذهباً من احتياطيها بقيمة مئة مليون دولار[1] . وفي ١١ تشرين الاول عام ١٩٤٧ طلبت بريطانيا من اتحاد جنوبي افريقيـــا قرضاً قدره ثمانون مليوناً من الجنيهات الذهبية فاجيبت إلى طلبها[2] ، أما فرنسا فلم تكن حالهـا باحسن من حال بريطانيا، فلقد اعلن رئيس الوزارة الفرنسية في جلسة البرلمان الفرنسي المنعقد بتاريخ ١٩ أيار[3] عام ١٩٤٧ ما ترجمته بالحرف الواحد :

« ان العجز في ميزان المدفوعات الفرنسية يبلغ ٩٩٠ مليون دولار، وان تلافيه يقتضينـا استنزاف ثلـثي الذهب المخزون في بنك فرنسا . واخيراً تبين بجلاء ووضوح أن الدولة الوحيدة التي كسبت الحرب وجنت منها الفوائد الطائلة والمرابح الضخمة كانت الولايات المتحدة الاميركية وحدها ، اذ قفز انتاجهـا الصناعي من ١٠٠ ٪ عام ١٩٣٧ إلى ٢١٢ ٪ عام ١٩٤٣ اما انتاجهـــا الزراعي فقفز من ١٠٠ ٪ عام ١٩٣٧ الى ١٢٨ ٪ عام ١٩٤٤ وقفزت صادراتها من ٣٣٦٠ مليون دولار عام ١٩٣٧ الى ١٤٥٤٠ مليون دولار عام ١٩٤٤ (هذا الاحصاء وارد في النشرة السابعة للمـالية والاحصاء الصادرة عن هيئة الامم المتحدة في شهر تموز سنة ١٩٤٨) وامتلأت قلعـة « نوكس » بذهب الامم الاوروبية ، وهنا ادرك الرأسماليون الاميركيون ان الفرصة قد حانت لهم لكي يسيطروا على الاقتصاد الاوروبي ، ويمتلكوا معظم المشروعات الاوروبية ،وان يجعلوها احتكاراً اميركياً واحداً ، وعقدوا العزم على ألا يقترفوا الخطيئة ذاتهـا التي اقترفها الرئيس « هربرت هوفر » عقب الحرب العالمية الاولى، تلك الخطيئة التي مكنت الدول الاوروبية من إعادة بنـــاء اقتصادها دون ان تشترك الرأسمالية

---

١) التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ – ١٩٤٧ صفحة ٣٤٦ .
٢) التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ – ١٩٤٧ صفحة ٣٤٨ .
٣) التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ – ١٩٤٧ صفحة ٣٣٤ .

الاميركية في ملكية المشروعـــات الاوروبية وتوجيهها. وبدأ الرأسماليون الاميركيون يطالبون بزعامة الدول الرأسمالية الأخرى ، ومعنى الزعامة هنا امتلاك قدر « كبير » من الاسهم في الشركات الاوروبية ، فنشرت جريـــدة « نيويورك تايمس » في عددهـــا الصادر في ١٢ آذار عام ١٩٤٧ مقالاً جاء فيه :

« لقد انتهى عصر السياسة الانعزالية وحل محله عصر تحمل الولايات المتحدة الأميركية لمسؤولياتها الصالحة . إن حكومتنا تملك اليوم اسطولاً بحرياً اضخم عدداً وعُدداً من جميع مـــا اجتمع للعـــالم من اساطيل ، ولبلادنا القوة الجوية الكبرى والقواعد البحرية والجوية الموزعة على جميـع انحاء العـــالم، وبيدها سر القنبلة الذرية، وموازنتها الحربية أضخم موازنة عرفها العالم».

ووقف المستر تشرشل في مجلس العموم البريطـــاني يؤبن الامبراطورية البريطانية الغاربة بخطاب القاه في ٧ آذار عام١٩٤٧ ونشرته جريدة « التيمس» ويقول :

« إننا نشهد اليوم بقلوب تنفطر كمداً وأسى زوال الامبراطورية البريطانية وأفول نجمها المتألق مجداً ».

وكان المستر ايمري وزير المستعمرات البريطانية في وزارة المحافظين قد سبقه الى نعي الامبراطورية البريطانية مهاجمـــاً الاساليب الاميركية الرامية الى تصفية الامـــبراطورية حيث قـــال[١] :

« ان النظام والوسائل التي تتبعها حكومة الولايات المتحدة تهدف الى تمكين فائض الانتاج الاميركي من غزو العالم وتوطيد سلطان ارباب المال الاميركيين وهذا مما سيعود على العالم بالفوضى وعدم الاستقرار وخاصة على تلك البلاد التي تملك وحدات اقتصادية محدودة النشاط وسيكون من نتـــائج السياسة

---

١) مجلة الشؤون الخارجية (اميركية) عدد تموز عام ١٩٤٧ صفحة ٥٩٢ .

الاميركية إنعدام التعاون بين الدول لتحقيق مصالحها المشتركة ».

غير ان الرأسمالية البريطانية كانت أضعف من ان تصمد امام اجتياح الرأسمالية الاميركية الرهيب لمشروعاتها ولاسواقها، لذلك استسلمت لها استسلاماً كلياً وأصبحت جزءاً بسيطاً من الاحتكار الاميركي ، ولم تجد تحذيرات اللورد « ولتون » زعيم حزب المحافظين في مجلس اللوردات فتيلا ، فلقد نشر المذكور مقالاً في جريدة « التيمس » اللندنية وفي عددها الصادر في ٢٤ كانون الثاني عام ١٩٤٧ ما ترجمته بالحرف الواحد :

« لقد كان مشترطاً في المفاوضات التي دارت بين الولايات المتحدة الاميركية وبين بريطانيا العظمى أن تمنح بريطانيا اميركا المركز التجاري الممتاز في الامبراطورية البريطانية ، وهذه الشروط لا تشكل خطراً شديداً على مصالحنا فيما لو انتهت المفاوضات وفق ما نشتهي ونريد . وعلى حكومة العمال ان لا تغريها اكوام الذهب ومليارات الدولارات على التنازل عن مركز بريطانيا التجاري في الامبراطورية ».

ويستطرد اللورد « ولتون » قائلا :

« اننا نؤمن بضرورة اجراء تعديلات اساسية على موقفنا السابق في التجارة الدولية ، **ولكن اليوم الذي نتنازل فيه عن امتيازاتنا التجارية داخل بلادنا وامبراطوريتنا سيكون اسوأ يوم يمر في حياتنا الاقتصادية والسياسية . اننا إذا سمحنا لاية حكومة ، مهما كانت صداقتها لنا ، بان تملي علينا شروطها وتحدد لنا السياسة الاقتصادية التي يجب ان نتبعها ، فعندئذ نكون قد وقعنا فريسة سهلة لاصعب ازمة مادية ومعنوية شهدها تاريخنا القديم والحديث** ».

ولكن تحذيرات اللورد ولتون، ودموع المستر تشرشل، ونعيب المستر ايمري وغيرهم من الشخصيات البريطانية لم تبدل او تغير شيئاً في فحوى قانون المنافسة الذي يحكم النظام الرأسمالي، ويحول العالم الرأسمالي كله الى احتكار واحد، إذ ان بريطانيا وحكومة العمال وقعت على اتفاقات مشروع مارشال ، هذه الاتفاقات

التي جعلت الاقتصاد الاوروبي ذيلاً للاقتصاد الاميركي وتابعاً له ، فلقد ورد في الفقرة الاولى من المادة الخامسة من الاتفاق الموقع بين الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا بموجب مشروع مارشال ما ترجمته بالحرف الواحد :

« على حكومة المملكة المتحدة (بريطانيا) ان تسهل نقل المواد الأولية وغيرها الى الولايات المتحدة الاميركية ، وخاصة تلك المواد المنتجة في المملكة المتحدة والتي قد ترغب الحكومة الاميركية في استيرادها، وعلى حكومة المملكة المتحدة أن تقبل شروطاً معقولة للبيع والتبادل وإلى ما غير ذلك ».

ولكي تسيطر الرأسمالية الاميركية على الاقتصاد البريطاني سيطرة كاملة وتوجهه وفق مصالحها ورغباتها نصت الفقرة الثانية من المادة ذاتها على ما يلي :

« على حكومة المملكة المتحدة ان تتخذ الاجراءات والتدابير لتنفيذ احكام الفقرة الاولى من المادة الخامسة فتنمي انتاجها من مواد الخام المطلوبة وتسهل نقلها الى الولايات المتحدة الاميركية، وعلى المملكة المتحدة ان تدخل حالاً وحينما تطلب حكومة الولايات المتحدة منها ذلك في مفاوضات لاتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ احكام هذه الفقرة ».

وفسرت المادة السادسة في فقرتها ان المملكة المتحدة تعني بريطانيا العظمى وايرلندا الشمالية .

وتنص الفقرة الاولى من المادة السابعة على ان هذه الاتفاقية يسري مفعولها في البلدان التالية :

« عدن ، بهاما ، قبرص ، جزائر فولك لاند ، جامييكا ، جبل طارق ، الساحل الذهبي ، هونكونغ ، كينيا ، مالطا ، مورتيز ، نجيريا ، سانت هيلانة ، سيشل ، سيراليون ، سنغافورة ، تنجانيكا، اوغندا، زنجبار، جزر وندوورد». وباختصار يسري مفعول هذه الاتفاقية في جميع ارجاء الامبراطورية البريطانية .

مما ورد يتضح لنا بجلاء السبب الجوهري الذي يجعل الدول الرأسمالية

الغربية تتكتل في معسكر واحد ، فقانون المنافسة الذي يلغي المنافسة في النظام الرأسمالي ويبطل مفعولها عن طريق الاحتكار قد ادى الى صيرورة الاقتصاد الغربي في كل مشروعاته جزءاً من الاحتكار الاميركي ، فالولايات المتحدة اليوم هي الدولة الرأسمالية الكبرى في العالم . أما الرأسماليات الغربية فهي توابع تدور في فلكها. منها تستمد النور ومنها تستمد الحياة.وبذلك تحقق للسيد « وتش » أمين صندوق شركة ستاندارد اويل مـــا أراده حينما قال في خطاب له عام ١٩٤٦ :

« اننا بوصفنا اكثر الدول انتاجا ومالاً وصناعة يلزم أن نحزم امرنا ونتحمل المسؤولية التي يلقيها على عاتقنا كوننا نملك غالبية الاسهم في هذه الشركة التي يسمونها العالم ».

إن السيد « وتش » لو استبدل كلمة العـالم بكلمة الدول الرأسمالية لأصاب كبد الحقيقة !

وهناك سبب آخر مكن الاحتكار الرأسمالي الاميركي من التهام الرأسماليات الاوروبية ، وهذا السبب هو وعي الشعوب في المستعمرات ومناطق النفوذ الغربي فلقد شاهدنا الثورات التحررية تندلع عقب الحرب العالمية الاخيرة في الكثير من المستعمرات : ففي اندونيسيا هب الشعب الاندونيسي يطـــالب بحرياته وامتشق السلاح ضد المستعمرين الهولانديين ، وفي الهند الصينية اندلعت نيران حرب تحررية ضد الاستعمار البريطاني . وفي الجزائر خاض اخواننـــا طوال سبع سنوات صراعاً دامياً ضد المستعمرين الفرنسيين، وفي مصر والعراق قام نظام ثوري انهى عهد الاستعمار البريطاني .

كل هذه الحركات التحررية قامت والدول الرأسمالية الاستعمارية تجتاز ازمة خانقة داخل بلادها ، لذلك لم يكن امام هذه الدول للقضاء على الحركات التحررية في المستعمرات إلا ان تستعين بموارد الولايات المتحدة وامكاناتها ، وكلنا يذكر ان الولايات المتحدة كانت تسهم بقسط وافر في تحمل نفقـات الحرب الاستعمارية في الهند الصينيـة ، كما وان فرنسـا قاتلت إخوانــــا في الجزائر

باسلحة حلف الاطلنطي التي هي في الاصل أسلحة اميركية .

لقد أدركت الرأسمالية الاميركية عقب الحرب العالمية الثانية أن الرأسمالية الاوروبية قد بلغت ذروة انحلالها، وان الفرصة مؤاتية وملائمة جداً لامتصاصها والتهامها ، فوضع الرأسماليون الاميركيون زملاءهم الاوروبيين امام خيار مروع : فاما الانحلال والتلاشي والزوال ، وإما الاندماج في الاحتكار الرأسمالي الاميركي ، وبالطبع اختار الرأسماليون الاوروبيون أهون الشرين وهو الاندماج . وهكذا انهار قانون جوهري من قانون النظام الرأسمالي : قانون المنافسة والمزاحمة ، وبذلك لم يعد من الممكن ابداً ان تنشب الحروب من جديد بين الدول الرأسمالية التي أصبحت جزءاً من الاحتكار الرأسمالي الاميركي .

٣ ــ ابقاء المراكز الاستراتيجية في ايد امينة

صرح الاميرال زدفورد رئيس اركان هيئة القيادة الأميركية المشتركة بما يلي :

« ان اهمية الشرق الاوسط للعالم الحر بالغة الى حد لا تحتمل المغالاة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، فهي تتمثل اولاً في موارده النفطية التي تسد اليوم معظم حاجات اوروبا، وخسارة هذه الموارد خليقة بها ان تكون كارثة تنزل بالعالم « الحر » ، وهي تتمثل ثانياً في ان مركزه الجغرافي يقع على خطوط المواصلات بين الغرب والشرق ، وثالثاً في هذه البقعة ليس للسوفيات دول حاجبة (Buffer State) .

مما ورد يتضح أن الشرق الاوسط هو بمثابة جسر يربط الشرق بالغرب ، وان كل طريق يمر من الغرب الى الشرق يجب ان يعبر على هذا الجسر . وفي الولايات

المتحدة الاميركية تقليد هو ان الشركات كثيراً ما تقوم ببناء الجسور والمعابر وتتقاضى رسماً عن كل سيارة او قطار يمر من فوق الجسر الذي قامت ببنائه .
وفي عالم يسوده النظام الرأسمالي يفضل الرأسماليون ان يكون مالك الجسر رجلاً ضعيفاً ، اذ انهم يستطيعون في مثل هذه الحالة ان يفرضوا ما يشاؤون عليه من شروط ، اما في حالة كون مالك الجسر رجلاً قوياً فعندئذ تنقلب الآية اذ يفرض القوي على المستعمرين شروطه .



ما هي الاشتراكية ــ رواد الاشتراكية ــ الاشتراكية في المجتمع القومي



١ ـ مدخل تاريخي

كان العالم الفرنسي «ريبود» اول من استعمل كلمة «الاشتراكية» وذلك حينما وصف مذهبي «سان سيمون» و«فوربيه». كما وان بريطانيا لم تعرف هذه الكلمة حتى عام ١٨٣٦، وذلك عندما اطلقت نعت الاشتراكية على منهاج «روبرت أون Robert Uwn لادارة مؤسسة «نيو لانارك» الصناعية، هذا المنهاج الذي بدأ «اون» في تطبيقه في اول كانون الثاني عام ١٨٠٠.

ويقول العالم الفرنسي «توكفيل» ان جميع المبادىء الاشتراكية الحديثة قد نص عليها في كتاب «شريعة الطبيعة» الذي وضعه «موريللي» عام ١٨٥٥ وقد جاء في قول «توكفيل» ما يلي:

«ترون في ذلك الكتاب (شريعة الطبيعة لموريللي) — فضلاً عن جميع القواعد عن سطوة الحكومة وحقوقها الواسعة — كثيراً من النظريات السياسية التي اقلقت بال فرنسا في هذه الايام، والتي نظن اننا ادركنا ببصرنا مولدها وهي: الاشتراك في الأموال وحق العمل والمساواة المطلقة وتسوية الاشياء على نمط واحد، ونظام دقيق في حركات الافراد وسكناتهم، وقد جاء في المادة الاولى منه:

«إن كل ما هو موجود في المجتمع ليس ملكاً لأحد»

وجاء في المادة الثانية:

«ان قوت كل فرد ولوازمه وقيمة عمله من بيت المال»

وجاء فيه ايضاً :

« ان تدخر كل المنتجات في المستودعات العـــامة لتوزع على افراد الأمة قضاء لحاجاتهم »

وجاء فيه ايضاً :

« ان يؤخذ الأولاد في السنة الخامسة من والديهم، ويربوا على نفقة الحكومة تربية عامة ذات نسق واحد »

ولا شك ان القارىء يعلم ايضاً ان كارل ماركس كان يرغب في ان يُسمي مذهبه بالاشتراكية ، غير انه وجـــد ان الاشتراكية تطلق على مذهبي « سان سيمون » و « فوريبه » لذلك سمى المـاركسية بالشيوعية تمييزاً لها عن « السان سيمونية » والفوريية ، أضف الى ذلك ان المـــاركسيين يسمون الشيوعية بالاشتراكية العلمية، وينعتون كل اشتراكية ما عدا الماركسية بالاشتراكية الوهمية .

ب ـــ رواد الاشتراكية :

بدأت الدعوة الى الاشتراكية في القرن السابع عشر ، فعقب ان اعدم الملك جيمس الاول ملك بريطانيا وارتفع كروموبل الى الحكم ، قـــامت حركة في بريطانيا تطالب لا بتحويل ميزان القوة من الملك الى الرجل العادي فحسب بل والى العامل السليب من الملكية ايضاً، وقام « جيرارد نيستانلي » زعيم « الحفارين » بنشر دعوته القائلة بأن الملكية كانت قبل الغزو النورماندي لبريطانيا ملكية مشاعية، واخذ « نيستانلي » يطالب « كروموبل » بالغاء الملكية الخاصة، وجعلها ملكية مشاعية، وقد كان نيستانلي يقول:

« بما ان كل فرد يعمل من اجل تنمية ما تملك الجماعة ، لهذا يتعين ان يكون لكل فرد الحرية في استعمال أية سلعة في المستودع العام من اجل استمتاعه ومعاشه

المريح، دون ما حاجة الى شراء او بيع، وبدون أي قيد من جانب أي شخص».

كما وانه يتوجب علينا الا ننسى دور روسو كرائد من رواد الاشتراكية، فلقد كان روسو ينادي جهاراً بان الملكية الخاصة سرقة محضة، وانه لم يكن هناك للملكية الخاصة وجود في حالة الطبيعة.

وعقب سقوط روبسبير واعدامه وتولي البرجوازية الفرنسية مقاليد الحكم قام «اميل فرنسوا بابوف» الفوضوي بالاتفاق و «فوشيه» الانتهازي المعروف، بتدبير مؤامرة تستهدف قلب نظام حكم الديركتوار وإقامة مجتمع شيوعي، غير انه سرعان ما اكتشف أمر «بابوف» واعدم وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره بعد. وكان اميل فرنسوا بابوف» (١٧٦٠ – ١٧٩٧) يقول بان الطبيعة قد وهبت جميع الناس حقوقاً متساوية في التمتع بكافة الطيبات، وانه يتوجب على الحكومة ان تعمد الى تأميم جميع المؤسسات الكبرى، ومن ثم ان تعمل على تأميم الثروات الخاصة وذلك باستصدارها قانوناً يحرم الميراث، كما كان يطالب الحكومة بان تتولى إدارة عمليات الانتاج والتوزيع، وعليها ايضاً ان تحرم كل منهاج ثقافي او تربوي يتعارض وهذا النظام الذي كان يدعو اليه «بابوف». اما الغذاء والكساء فيجب ان يكونا واحداً للجميع فلا استثناء الا لدواعي اختلاف الجنس (Sex) والسن، واخيراً كان «بابوف» يطالب الحكومة بأن تأخذ جميع الاطفال من أهليهم لتربيتهم وفق اساليب المجتمع الجديد.

وجاء عقب «بابوف» «اتيين كابت» الذي نشر قصة تدعو الى تطبيق المذهب الذي نادى به بابوف واسمى هذه القصة «الرحلة الى ايكاريا».

يقول «إيتين كابيت» إن «ايكاريا» كانت بلداً تسودها ديكتاتورية فنية – Technical Dictatorship – تعتمد التنسيق والانسجام والتجانس في كل عمل من اعمالها. وكانت شوارعها مستقيمة ومنازلها عمارات تتألف كل عمارة من خمسة عشر بيتاً متشابهة تماماً، ويحتوي كل بيت على احدث المعدات الصحية.

وكانت سقوفها من زجاج وتستعمل الآت التقاط الغبار لكنس الشوارع، وكانت الدولة هي المالكة لكل شيء في « ايكاريا » وهي التي تقوم بتوزيع المنتجات بالتساوي بين المواطنين. وكان الناس يرتدون زياً واحداً، وان كان يسمح للمرء باختيار اللون الذي يوافق ذوقه . اما الصحف فلم يكن من المسموح إصدارها، وكانت الكتب جميعها تخضع لرقابة الحكومة قبل نشرها . وبلغ إيمان « كابيت » بهذه النظرية حداً جعله يهاجر الى الولايات المتحدة الأميركية ويبتاع قطعة ارض في ولاية « تكساس » حيث انشأ عليها مستعمرة يسودها نظام « ايكاريا » . ولكن ، ونتيجة للحمى الصفراء التي تفشت في تكساس ، انتقل « كابيت » الى « ناوفو » بولاية « الينوي » ، وانشأ مستعمرة بلغ عدد سكانها الفاً وخمسماية من الافراد، غير ان مثالية «كابيت » سرعان ما قضت على تلك المستعمرة .

ومن ثم جاء « سان سيمون » (١٧٦٠ — ١٨٢٥) فرأى ان تقسيم المجتمع الذي اعقب عهد الاقطاع، وبدا متجلياً في بداية النزعة التجارية ، كان تقسيما ضاراً ، لذلك كان يطالب رجال العلم بادارة الصناعة بكرم وحكمة لصالح المجموع . وكان « سان سيمون » يرى ان الانسان يحتاج في ظل النظام الجديد الذي دعا اليه، الى سلطة روحية تقوم بالدور ذاته الذي كانت تقوم به الكنيسة في عهد الاقطاع . اما القواعد التي يرتكز إليها نظام سان سيمون الجديد فهي : العلم والصناعة . وكان سان سيمون يقول بانه لا يكفي ان نقضي على القديم ، بل يتوجب ان نتبع عملنا هذا بايجاد منهاج افضل من المنهاج الفردي المتميز بالفوضى، فالملكية الفردية المركزة او المجمعة هي وسيلة للاستغلال، والاستغلال هو سبب الفقر والفاقة .

وكان « سان سيمون » يعتقد ان مثل هذا النظام الذي يدعو اليه سيؤدي بالتالي الى قيام الملكية الاجتماعية العامة بدلاً من الملكية الفردية الخاصة، وكان يرى بأن الملكية الخاصة ستبقى محصورة في ادوات الاستهلاك ، اما الأجور فيتولى تحديدها موظفو الدولة حيث تجيء متناسبة والخدمات التي يؤديها الفرد.

وفي ظل نظام « سان سيمون » لا مكان للكسالى الخاملين من اغنياء او فقراء .

بما ورد يتضح ان نظام سان سيمون كان مزيجاً بين الاقتصاد والآداب (Literature) وكان مسيحياً مثالياً في جوهره ، يعتمد الاماني والنزعات الانسانية دون الحقائق والواقع المادي للفرد ، لذلك فشلت المحاولة التي قامت بها جماعة من الناس لتطبيق مذهب « سان سيمون » وكانت هذه الجماعة تعيش عيشة اشتراكية . وقد كان « لأوغست كونت » صاحب مذهب الفلسفة الوضعية فضل كبير في تهذيب « السان سيمونية » .

وتتجلى عبقرية « سان سيمون » في أنه كان من رواد الاشتراكية الاوائل الذين ادركوا ما للعنصر الاقتصادي من اهمية في سير التاريخ وتطور المجتمع . فلقد قرر سان سيمون ان السياسة ليست سوى علم الانتاج ، وتنبأ بان الاقتصاد سيتفوق عليها وبان السياسة ستندمج فيه (الاقتصاد) .

وبذلك يكون سان سيمون اول من رأى ان الحكومة ستتحول من كونها اداة لادارة البشر إلى صيرورتها إداة لادارة الانتاج ، وهذا ما معناه على حد تعبير « أنكلز » القضاء قضاءً مبرماً على الدولة .

كما وأن من لمحات عبقرية « سان سيمون » تقريره عام ١٨٠٢ ان الثورة الفرنسية لم تكن سوى صراع بين نبلاء الاقطاع من جهة ، والبرجوازيةوالطبقات غير المالكة من جهة اخرى ، أضف الى ذلك ايمانه المطلق بان نظامه لن يأتي بثمار يانعة إلا في حالة قيام وحدة سياسية اوروبية ، وقيام برلمان واحد لاوروبا يتيح للعقلاء والمستنيرين تولي مقاليد الحكم فيها . لذلك قام بالمجاهرة بهذا الرأي غداة دخول الحلفاء باريس عام ١٨١٤ وردده عقب هزيمة نابليون في معركة واترلو عام ١٨١٥ اذ قال آنذاك بان الضمانة الوحيدة للسلم وتقدم اوروبا وازدهارها يستوجبان قيام حلف بين فرنسا وبريطانيا والمانيا . ويعلق « أنكلز » على دعوة سان سيمون هذه بقوله :

« لا شك ان في اعلان ذلك على مسامع الفرنسيين (الدعوة إلى تحالف بين

فرنسا وبريطانيا والمانيا) هام ١٨١٥، والمناداة جهراً بحلف مع منازعي النصر في معركة واترلو ، جرأة نادرة ».

ويجيء شارل فورييه (١٧٧٢ – ١٨٣٧) ليوجه نقداً عنيفاً قاسياً الى المجتمع البرجوازي ، وليكشف عن فضائح هذا المجتمع ومخازيه ، وليناديء بتحويل النظام الى نظام افضل وذلك عن طريق ضرب الامثلة العملية ، لا عن طريق الوعظ والارشاد ، وليسخر من اولئك الفلاسفة الذين يقدمون الى الامم الوعود البراقة، والكلمات المديحة، والجمل الرنانة الطنانة ، ثم يبين بوضوح كيف ان الحقيقة والواقع يعاقبان مثل تلك الوعود بكشف كذبها وخداعها ، واخيراً ليناديء بتكوين « الهيئات التعاونية » او الـكيمونة (الجماعة المشاعية) Phlanstery . وقد كان هم « فورييه » في « الكيمونـة » يتركز على الاحتفاظ بالمنافع الميكانيكية في الصناعة الكبيرة والحيلولة دون انحدار العامل الى مرتبة الآلة ، اي صيرورة العامل آلة ، وكان لذلك يقول بان « الـكيمونة » او « الفلانستري » يجب ان تتألف من ثلاثماية عامل فقط يتعاونون على الانتاج . اما ادوات الانتاج فهي ملك مشترك بينهم ، كما ويمكن ان يكون الاستهلاك فردياً حسب اذواقهم . وكان «فورييه » يفترض ان التدبير الاقتصادي سيدفع بسكان « الفلانستري » إلى تناول طعامهم معاً . وكان يرى ان الآلة ستخفف من اعباء العمل، غير انه يجب الا تحل محل العامل . وعليه فان سكان«الفلانستري » سيكونون احراراً في ادخال الآلة او عدم إدخالها ، كما وان الزراعة ستنظم في «الفلانستري » تنظيماً يجعلها تتفق والصناعة ، ويكون البيع والشراء تعاونياً إلى مدى عظيم ، فتخلف الثروة وتوزع وفق مناهج اقتصادية لم يعرفها الناس من قبل . وسيؤدي شعور العامل بلذة العمل الى زيادة الانتاج زيادة تمكنه من اعتزال العمل في سن الثامنة والعشرين .

وكان « فورييه » يرى ان نظام « الفلانستري » سيبقى منسجماً متناسقاً، لان الرجل الحر في نظر « فورييه » سيعمل كل ما هو معقول ومناسب . وبذلك تصبح « الفـلانستري » على حد تعبير « فورييه » داراً للطبيعة البشرية

لا سجناً لها . واغرق « فورييه » في التفاول بمستقبل العـــالم الذي كان يراه على على وشك الدخول في عصر ذهبي حيث تجر فيه الاسود العربات، وتسحب الحيتان المراكب في البحار ، ويصبح ماء البحر صالحاً للشرب . وبلغ التفاؤل بفورييه حداً جعله يعلن انه يتوقع في بداية كل شهر قمري ان يتقدم احد الاغنيـــاء ليطرق بابه وليقدم اليه الاموال اللازمة لتأسيس « الفلانستري » التي خططها.

تقول نظرية « فورييه» في التاريخ ان المجتمع قد مر خلال تطوره في مراحل اربع هي : الوحشية والهمجية والقبلية والتمدنية . ويعـــني فورييه بالتمدنية المدنية البرجوازية ، ويبين بوضوح كيف ان « النظام » يدفع كل رذيلة مارسها المجتمع الهمجي من زيها السافج الى زي معقد ، كما يظهر ان المدنية تدور في حلقة مفرغة ضمن المتنـــاقضات التي تولدها باستمرار ، وكيف ان الفقر على حد تعبير « فورييه » ينبع من التخمة ، واخـيراً يبرهن على ان لكل حقبة تاريخية دورا صاعداً يعقبه دور نازل .

قلت في بداية حديثي عن « فورييه » انه وجه نقداً عنيفاً قاسياً الى المجتمع البرجوازي ، وسبب ذلك يعود الى ان « فورييه » قــد اذهله الفساد والتدليس اللذان كانا منتشرين في عالم التجارة ، فلقد عاقبه ابوه في صباه لانه اطلع احد الزبائن على الحقيقة فيما يختص باحدى السلع، وزاد من نقمته على المجتمع البرجوازي حينما امره احد التجار بالقاء حمولة سفينة من الارز في البحر ، كان ذاك التاجر قد ابقاها زمناً على امل المضاربة بثمنها ففسدت .

ومن ثم جــاء « لوي بلان » (١٨١١ – ١٨٨٢) وكان اول من دعا العمال الى الاستيلاء على السلطة بغية تحقيق الاصلاحات الاجـتماعية ، وخلق المجتمع الجديد . وعندما نشبت ثورة ١٨٤٧ اصبح «بلان » عضواً في الحكومة الموقتة ، غير انه قاوم الثورة التي كانت تستهدف تــأسيس « كومون باريس » وعندما تولى السلطة نابليون الثالث أبعد « لوي بلان » عن باريس وبقي يعيش في المنفى حتى عام ١٨٧٠ حيث انتخب عضواً في الجمعية الوطنية .

وكان « بـــلان » يرى ان على الدولة ان تنشىء المصانع الاهلية التي تكفل

لكل فرد عملاً، وان تكون هذه الصناعات صناعات دائمة غير موقتة ، وليست مجرد اجراء وقتي لمكافحة البطالة. وكان « بلان » يقول بان المنافسة المتميزة بالجودة والكفاية بين مثل هذه الصناعات ذات الملكية الجماعية وبين الصناعة الخاصة، كفيلة بالتالي بالقضاء على المشروعات الخاصة . وينصح « بلان » بتأسيس اتحاد قومي للمشروعات العامة يديره ويشرف عليه العمال، وذلك لتلافي الخسارة التي قد تنزل باحد هذه المشروعات .

وكان « بلان » يؤمن بان البشر متفاوتون في المواهب ، وهو اول من نادى بالشعار الاشتراكي المشهور : « من كل حسب مقدرته، الى كل حسب حاجته » .

ويجيء بعد ذلك « بيير جوزيف برودين » (١٨٠٩ – ١٨٥٦) ليشنها حملة شعواء على البرجوازية والملكية الخاصة ، وليطالب بالمساواة بين الجميع ، ولينادي بمقاومة الدولة ، وليقول بان المجتمع المثالي هو اتحاد بين النظام والفوضى ، وليقرر انه لا طريق لالغاء الملكية الخاصة الا بزوال الحكومة، ولينعت ملاكي الاراضي باللصوص ، وليتهم اصحاب الاعمال بسرقة العمال ، ولينادي بان حق الفرد في الحصول على نتاج عمله كاملاً غير منقوص حق مقدس ، وانه يشكل الملكية الخاصة الطبيعية . والفرد حسب فلسفة برودين لا يمكن ان يصل الى حقه هذا الا بزوال الدولة التي تحمي اولئك الذين يسرقون الجماعة ، ويستغلون الآخرين . وبهذا يكون برودين اول من اشترع دستور الفوضوية ووضع مذهبها .

ومن الجدير بالذكر ان كارل ماركس قد شن حملة عنيفة على برودين في كتابه المعروف بـ « بؤس الفلسفة » « The Misery of Philosophy » وذلك رداً منه على كتاب « برودين » فلسفة البؤس « The Philosophiy of Misery ».

واخيراً يجيء « روبرت أون » (Robert Own) (١٧٧١ – ١٨٥٨) الذي يعتبر ملهم الاشتراكية البريطانية الحالية وواضع دستورها. وكان « اون » يؤمن بان تحسين الحياة البشرية يتم بواسطة توفير بيئة افضل للعامل ، ويرى ان النظام التعاوني الذي يخلو من الرأسماليين هو وحده المتصف بالانسانية والرحمة ،

وان الفقر ينشأ عن المنافسة بين الناس والآلة ، وانه لا دواء للفقر إلا باستخدام وسائل الانتاج وإدارتها إدارة تعاونية في صالح الجماهير . ويرى « أون » أن هناك ثلاث عقبات تعترض كل إصلاح اجتماعي وهذه العقبات هي:

الملكية الفردية والدين وطريقـــة الزواج المتبعة . وكان « اون » اول من استن سنة تبادل المنتجات لقاء ورقات نقدية قيمتها التوحيدية ساعـات العمل . وتجربة روبرت اون في « نيو لانارك » مشهورة ومعروفة وليست بحاجة الى ذكر او تفصيل .

واخيراً لا آخراً، يطالعنا عام ١٨٤٧ بالبيان الشيوعي الذي وضعه ماركس وانكلز،هذا البيان الذي يحاول أن يرسم للطبقة العاملة خط سيرها،ويحلل التاريخ والمجتمع ويضع لها فلسفة جديدة، ويحدد للبروليتاريا واجباتها واهدافها.وقبل ان انهي بحثي في رواد الاشتراكية يتوجب علي ان اشير الى حركة اشتراكية فعالة عرفتها المجتمعات الاوروبية ،وكان لها اثر بارز فيها واعني بها ، الحركة النقابية .

ان النقابة هي حركة وسط بين الاشتراكية والفوضوية ، ومذهب النقابيين يقاوم ملكية الدولة (التأميم) ، وينادي بضرورة جعل كل صناعة ملكاً للعمال العاملين فيها ، وخاضعة لاشرافهم وتوجيههم . وتقوم النقـابات بانتخاب مجلس عام يتولى شؤون التنسيق بين مختلف الصناعات ، غـير انه لا يحق لهذا المجلس التدخل في المسائل الداخلية للصناعة .

ج ـــ في فشل رواد الاشتراكية

تعمدت فيما تقدم ان استعرض نظريات ومـذاهب المفكرين الاشتراكيين البارزين والسابقين لكارل مـاركس وفريدريك انكلز إستعراضاً موجزاً ، غير

أنني سعيت ان اقدم الى القارىء خلاصة الخلاصة لفلسفاتهم ومذاهبهم ، وذلك كله بغية التقرير ان الافكار الاشتراكية التي جاءت قبل الماركسية لم يكتب لها اي نجاح في الميدانين النظري والعملي ، ولم تلق أية استجابة من لدن الجماهير ، ولم تصبح عقائد جماهيرية ثورية واما النجاح الذي لاقاه « روبرت أون » في تجربته الممثلة في مؤسسة « نيو لابارك » فكان نجاحاً وقتياً وعلى نطاق ضيق ومحدود ، كما وان نظام « الفلانستري » الذي جاء به « فوربيه » لم يصادف غير الفشل في كل من القارتين الاوروبية والاميركية ، فما هو السر في ذلك ؟ إنني اعتقد ان سبب فشل تلك المذاهب الاشتراكية يعود اولاً واخيراً الى كونها مذاهب غير علمية ، اي مذاهب مثالية تمتّ باقرب الصلات الى الغيبية ، او بالأحرى تنبع من الغيبية ذاتها ، لذلك جاءت تلك المذاهب غارقة في الصوفية والخيال والتفاؤل . « ففوربيه » الذي كان ينتظر من احد كبار الاغنياء في بداية كل شهر قمري أن يقرع بابه وان يقدم له المال اللازم لتمويل «الفلانستري» وسان سيمون صاحب كتاب « المسيحية الجديدة » الذي كان يرى ضرورة قيام كنيسة جديدة تحل محل الكنيسة القديمة في عهد الاقطاع ، وتقوم بالدور الذي كانت كنيسة الاقطاع تقوم به ، واضرابهما من المفكرين الاشتراكيين ، لم يكونوا ثوريين بل اصلاحيين . وهناك ، كما يعلم القارىء ولا شك ، كبير فرق بين الاصلاحي والثوري. فالاصلاحي يتوخى تبديل المظهر والابقاء على الجوهر. اما الثوري فانما يسعى الى تبديل المظهر والجوهر معا ، لذلك لاقت دعوة « روبرت اون » في بداية الامر الاحترام والتبجيل والتقدير من لدن المجتمع البرجوازي في بريطانيا ، غير ان « اون » عندما بدأ يسير على الطريق السوي وعندما بدأ ينادي بمبادىء الاشتراكية العلمية ، وعندما بدأ يكتسب الصفات الثورية تنكر له البرجوازيون وتناسوه واهملوه .

لقد كانت البرجوازية آنذاك آخذة في النمو والتضخم والتحول الى طبقة رأسمالية احتكارية استغلالية استعمارية . وكانت البروليتاريا آخذة في الازدياد

والنمو والتضخم العـــددي ، وكان الوعي الاجتماعي يزداد بين صفوف العمال وينتشر ،ولقد ادركت البرجوازية ان البروليتاريا في طريقها إلى الانفجار، وان على البرجوازية الكبيرة اذا ما ارادت ان تحتفظ بملكيات مؤسساتها وبالسيطرة على المجتمع اقتصاداً وسياسة ان ترفع من المستوى المعاشي للعمال، فتزيد الاجور وتخفض ساعات العمل، وتشجع الحركات التي ترمي الى الاصلاح لا الى الثورة، وان تبقي كل حركة اشتراكية سجينة الغيبية في مثاليتها وأخلاقها ، وبذلك تتحول الاشتراكية من حيث هي حركة ثورية تستهـــدف قلب نظام الحكم قلباً كاملاً شاملاً بواسطة التطويح بطبقة اجتماعية والارتفاع بطبقة اجتماعية اخرى ، اقول وبذلك تتحول الاشتراكية من حيث هي حركة ثورية الى صيرورتهـــا حركة إصلاحية ، ولهذا طلع علينا برنشتين Bernstein بنظرية جديدة هي النظرية المعروفة بالاشتراكية المتطورة Evolution Socialism ، هذه الاشتراكية التي تتعارض وابسط مبادىء الجدلية إذ تقول بانه ليس هناك من امل قريب في سقوط المجتمع البرجوازي وزوال الدولة البرجوازية ، ويؤكد برنشتين بان الرأسماليين لن يتناقص عددهم في الدولة الرأسمالية مهما قويت مراكزهم، بل على العكس من ذلك سيتزايد، ويقول بان نظام الاحتكار لن يسير بسرعة متعادلة في كل فرع من فروع الصناعة ، ويذهب الى حد الهـذيان بان خمـيرة الاشتراكية قد بدأت تتخلل الرأسمالية !؟ وانه تبعاً لذلك يتوجب على الهيئات الاشتراكية ألا تعمل كهيئات ثورية بل كهيئات محولة في المجتمع .

هذه هي خرافات برنشتين واساطيره ،وقد اثبت تاريخ تطور تاريخ الاقتصاد السياسي في البلدان الرأسمالية خطأ جميع نظريات برنشتين واضرابه ، فالصناعات وحتى المصارف في الولايات المتحدة مثلاً قد بلغت اعلى الدرجات من التمركز في الكارتلات والشركات المتحدة ، كما وان عدد الرأسماليين في تناقص مستمر ومتزايد ، أضف الى ذلك ان الاشتراكية قد برهنت انها لا تستطيع ابداً ان تقوم بدور المحول في المجتمع الرأسمالي ، بل ان ما يقوم بمثل هذا الدور هو الفاشية،وذلك عندما ترى الطبقة البرجوازية الكبيرة ان فقدان التوازن الطبقي

سيؤدي الى ثورة اشتراكية ترفع الى الحكم فاشستيين من عسكريين او غيرهم حيث يحاول هؤلاء ان يعيدوا هذا التوازن عن طريق العنف والاكراه او المصالحة والمهادنة .

كلنا يعلم ان الاشتراكية في نهاية مراحلها تتعارض تعارضاً تامـــاً ومبدأ الملكية الخاصة ، إذ ان الاشتراكية قامت لتنفي هذا المبدأ نفياً تاماً، وتستأصل جذوره من المجتمع استئصالاً جذرياً، ولنسمع الآن ما يقوله «رمزي مكدونالد» زعيم حزب العمال الاشتراكي البريطاني السابق وزعيم « الدولية الثانية » وذلك في كتابه « الحركة الاشتراكية » وفي الصفحة ٨٩ منه :

« ان الفكرة الشائعة عن الاشتراكية بانها تطالب بالغاء الملكية الخاصة ، هي فكرة خاطئة لا تقل في خطأهـــا عن الفكرة القائلة بان الاشتراكية والفوضوية شيء واحد ».

ولنسمع المتناقضات الطريفة في تحديد غايات الاشتراكية كما يراها « رمزي مكدونالد » إذ يقول في الصفحة ذاتها وفي الكتاب ذاته ما يلي :

« تبدي الاشتراكية استحسانها وتساعد في النهـــاية على استئصال نتائج الملكية الخاصة ، وتحقق الممكنات المرغوب فيها ، وتكوّن نظرة الاشتراكية في الملكية الخاصة جزءاً من غايتها العامة في منع المصالح الخـــاصة التي تسلب الرفاه الاجتماعي او ما يتعارض وهذا الرفاه ».

هذا ما يقوله احد الزعماء البارزين جداً للاشتراكيين البريطانيين، ومنه يفهم بوضوح ان الاشتراكية كما يراهـا رمزي مكدونالد لا تتوخى ابداً القضاء على الرأسمالية والتنظيم الرأسمالي للاقتصاد ، وانما تتوخى فرض نظـــام من المراقبة الدقيقـــة والحصر (Containment) على الرأسمالية ، ومَثّل « مكدونالد » كمثل انسان يرى افعى تسعى في بيته ، فبدلاً من ان يسحـق رأس هذه الافعى بكعب حذائه يمسك بها ويخلع اسنانها ثم يطلق سراحها من جديد وهو يقول :

« ايتها الافعى لقد خلعت انيابك وسأتركك الآن تعيشين في منزلي بين أهل

بيتي ، غير أنني سأعيد خلع انيابك عندما تنمو من جديد ».

هذه هي « الاشتراكية » التي انبثقت عن سان سيمون وفوريبه وبرنشتين وروبرت أون وغيرهم من المثاليين ، وهي اشتراكية كما يرى القارىء ولا شك ، غير منطقية او عملية إذ أنها تعتمد على النوايا الطيبة لا الأعمال ، وتعتمد على التفاؤل لا المعالجة الجذرية للأمور ، ومثل هـذه الاشتراكية لا بد أن تفشل ولا بد ان تنهار ، إذ أنها لا تستند إلى اية فلسفة ، ولا تقوم على أية أسس فلسفية جديدة ذات صفة ثابتة ولون ثابت . ولذلك لا يمكن أن ترتفع في صراعها إلى مستوى الرأسمالية ، فالرسمالية تؤمن بالواقع وتؤمن بالحقائق مهما كانت مرة او باردة ، وتتعامل وهذه الحقائق في كل نشاطاتها ، لذلك لن يكتب لأية حركة اشتراكية النصر على الاستبداد والاستعباد الرأسماليين إلا إذا كانت تلك الحركة واقعية في نشاطاتها ، واقعية في فهمها للعناصر والاشياء والاحداث ، واقعية في فهمها للانسان والمجتمع والدولة ، واقعية في تحديدها لدور الفرد والطبقة ، واقعية في تعاملها والطبيعة والكون الكبير . لذلك فان أعظم الاخطار التي تهدد الاشتراكية تتمثل في المثالية والأوهام الصوفية ، وفي تحول الاشتراكية من حيث هي حركة ثورية الى صيرورتها حركة إصلاحية ، ولتجنب هذه الاخطار على القادة الاشتركيين ان يتمتعوا بالفكر الثاقب والشجاعة والجرأة .

د ـــ كيف ولماذا نشأت الاشتراكية ؟

قلت في مكان آخر من هذا الكتاب ان العالم يسير في جميع نشاطاته العلمية والسياسية والاقتصادية وفق مذهب الجدلية ، هذا المذهب الذي وضع له « هيغل » دستوره ، وشرع له قوانينه الثلاثة المعروفة ، ومن ثم جاء

ماركس ليثور على هيغل أو ليطرح على حد تعبير أنكلز قشرته المثالية، ويأخذ نواته العلمية ، لذلك ووفق هذه القوانين الجدلية ولدت الحركة الاشتراكية وتكونت داخل رحم الرأسمالية .

فعقب ان دخلت الآلة ميدان الانتاج ، وغدت عنصراً جوهرياً ووسيلة جوهرية او بالاحرى الوسيلة الجوهرية الوحيدة للانتاج اخذت البورجوازية تقفز قفزاً في سلم الرأسمالية وسلم السلطة ، ووجهت ضربات مميتة وقاتلة للاقطاع فكانت حركات الاصلاح الديني التي قام بها جون هُس ، وكلفن ومارتن لوثر ، وكانت الثورة البريطانية وإعدام جيمس الاول ، وتولي كرومويل مقاليد الحكم ، وكانت الثورة الفرنسية وكان القضاء النهائي على الاقطاع ، وكان الاتحاد الالماني الذي حققه بسمارك ، وكانت الوحدة الايطالية وكان وكان .. الخ ..

غير ان هذه الانتصارات الساحقة في الميدان السياسي لم تبدل الحقيقة ، حقيقة جوهر الرأسمالية كنظام اقتصادي وسياسي ، ولم تلغِ المتناقضات التي تكتنف صميم النظام الرأسمالي ، فالرأسمالية التي خلقت الصناعات الضخمة وأوجدت المشروعات ذات الطاقات الانتاجية الهائلة ، والتي اجتاحت بجيوشها مختلف البلدان في افريقيا وآسيا ، وحولت معظم الاقطار في هاتين القارتين إلى مستعمرات تمد صناعاتها بالاسواق والمواد الاولية، خلقت ايضاً العدو اللدود الذي سيقضي عليها ، خلقت الجماهير الراغبة في التحرر والحياة الكريمة ، فلقد أدت الثورة الصناعية في اوروبا ، وأدى توسع المشروعات الصناعية وتضخمها إلى نشوء طبقة جديدة في المدن هي طبقة « الاجراء » ، طبقة العمال ، وكان يرافق إزدياد المشروعات الصناعية ، كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب ، ازدياد في جيوش العمال . وكان الدستور الذي ينظم علاقات العمال بالرأسماليين يتوخى تحقيق اكبر قدر من الربح ، وهذا الامر لن يتحقق إلا على حساب العمال وعلى حساب مستواهم المعاشي ، لذلك لم يكن من بد للرأسمالية إلا ان

تلجأ إلى الاستغلال ، والاستغلال البشع بالذات .

وكان هذا الاستغلال يتمثل في القاعدة القائلة : اقل قدر ممكن من الاجور ، واكثر قدر ممكن من الساعات العملية الانتاجية . ولما كانت الحياة في جوهرها حركة متحركة تقول بأن لكل فعل رد فعل ، وان للطاعة حدوداً وللصبر حدوداً ايضاً ، لذلك ووفق القانون الثالث من قوانين الجدلية وهو قانون « نفي النفي » كان لا بد للعمال ان يشعروا بالمظالم التي تنزل بهم ، ويروا الحيف البالغ الذي يلحقه الرأسماليون بمصالحهم ، فيستيقظوا ويعوا اهميتهم التاريخية كطبقة ثورية ، طبقة تؤلف الاكثرية الساحقة من الامة والامم ، لذلك جاءت الاشتراكية بمثابة صيحة وعمل يدعو الى إنجازه المضطهدون المستغلون والمعذبون في الارض .

هـ — ما هي الاشتراكية ؟

يعرّف الاشتراكي البريطاني برتراند رسل الاشتراكية بما يلي :

« الاشتراكية هي اشتراك المجتمع في ملكية الارض ملكية اشتراكية ، وفي رأس المال في ظل نظام حكم ديموقراطي ، ويترتب على هذه الاشتراكية توجيه الانتاج توجيهاً يجعله انتاجاً للاستهلاك لا للربح ، ويترتب على هذه الاشتراكية توزيع الانتاج على الجميع ، وإذا بقي ثمة من تباين او اختلاف في الحظوظ فيجب أن تبرره المصلحة العامة . »

وهناك تعريف آخر للاشتراكية يتعارض في بعض وجوهه وتعريف « برتراند رسل » الآنف الذكر ، ويتبنى هذا التعريف الاشتراكيون المتأثرون بعض الشيء بالمادية الديالكتيكية ، ويقول هذا التعريف ما يلي :

« الاشتراكية هي مظهر من مظاهر المجتمع ، قواعده الاساسية هي :

١ – ملكية وسائل الانتاج ملكية اجتماعية اشتراكية .

٢ – إدارة هذه الوسائل واستخدامها ديموقراطياً .

٣ – توجيه الانتاج توجيهاً يتفق وحاجات البشر .

ويقول هؤلاء بأن إيجاد مثل هذا المجتمع مرهون بالغاء الملكية الفردية والملكية القومية ، او بتعبير آخر ان زوال السيادة القوميـــة هو الشرط الضروري لتحقيق الاشتراكية . كما يقولون بان إطلاق الصفة الاجتماعية على الملكية الاشتراكية ، يعني أن هذه الملكية قد غدت ملكية في خدمـــة الجماعة لا في خدمة الدولة بغية تدعيم سيادتها القومية ونشر نفوذها السياسي والمذهبي .

مما ورد يتضح أن جميع الاشتراكيين ، وطبعاً ما عـــدا الاشتراكيين البريطانيين ، متفقون على إلغاء الملكية الخاصة ، وعلى توجيه المشروعـات والمؤسسات توجيهاً يتوخى سد حاجات البشر لا الربح .

إذن فهل يتوجب على الاشتراكيين ، او المؤمنين بالاشتراكية ، ان يقدموا في اول خطوة يخطونها في ميـدان النشاط السياسي على إلغاء الملكية الخاصـة ؟

إن من ابرز صفات الاشتراكية هي قدرتها على « التـــأقلم » والمجتمع ، وكلنا يعرف ان المجتمعات البشرية على ظهر هذا الكوكب قد بلغت اليوم مراحل متفاوتة في التقدم والرقي ، وان لكل مجتمع من هذه المجتمعـات ظروفه الاقتصاديــة والاجتماعية الخاصـة به ، لذلـك فان وســائل تحقق الاشتراكيــة في مجتمع ما تحـددها حسب منطوق الفلسفـة الديالكتيكية الظروف الاقتصاديـة والاجتماعية التي تسود ذاك المجتمع . فقد ينهج مجتمع معين في طريقه الى الاشتراكية نهجاً مغايراً ومخالفاً تماماً للنهج الذي ينهجه مجتمع آخر ، غير إن كلاً من المجتمعين المذكورين يسلكان الطريق الصحيح

إلى الاشتراكية ، لذلك فالغاء الملكية الخاصـــة التي هي الهدف الاساسي للاشتراكية ، واستبدالها بالملكية الاجتماعية الاشتراكية ، هي الهدف النهائي للحركة الاشتراكية الواقعية ، وليست الهدف الاولي المباشر . فقـــد يضطر القائمون على توجيه المجتمع في بلد ما إلى تشجيع البرجـوازية في ذلك البلد ، وحمايتها ورعاية مؤسساتها وإتاحة كل الظروف التي تمكنها من النمو والازدهار. وهذا العمل ، كما يبدو ، يشكل انحرافاً كلياً عن النهج الاشتراكي ، غير أنه يشكل في الواقع خطوة واسعـة نحو الاشتراكية ، وهذه الخطوة تتمثـل في زيادة فعالية رأس المال القومي زيادة لا يمكن أن تتحقق إلا عن هذ السبيل ، سبيل حماية البرجوازية الناشئة التي تمليها وتفرضهـا ظروف اجتماعية معينة من سياسية او تقنية .

غير أن قيام مجتمع ما باتاحة مثل هذه الفرصة للبرجوازية يجب ألا يتم الا في حالة واحدة ، وهذه الحالة هي ان يكون الاشتراكيون الواقعيون الممثلون مظهراً وجوهراً للجماهير في دست الحـكم ، وبأيديهم مقاليد السلطة والأمور ، فالاشتراكيون آنذاك يسمحون لرأس المال بالنمو والازدهار ، غير أنهم يمنعون الرأسماليين من السيطرة والحكم وادارة المجتمع ادارة تتوخى الربح لا سـد حاجات البشر .

مما ورد يتضح انه ليست للاشتراكيـة في مراحلها الابتدائية قوانـين حديدية تطبق في كل بلد وفي كل قطر دون مراعاة لظروف ذاك البلد او القطر ، بل ان الاشتراكيـة في مراحلها الاولى تتأقلم والمجتمع ، وتتـأثر بظروفه ، وتسلك كل سبيل يؤدي إلى زيادة فعاليات رأس المـال القومي ، شريطة أن تكون السلطة بأيدي الاشتراكيين بغية حماية المجتمع من الانحرافات الرأسمالية .

غير ان الاشتراكية في جميع البلدان ، وبغض النظر عما قد يكتنف هـــذه البلدان من تفاوت في التقدم الاقتصادي والاجتماعي ترى ان المرحلة الاولى في

الطريق الى الاشتراكية ، تنجز حالما تستولي الدولة على المرافق العامة ذات الاهمية الحيوية للشعب ، كالخطوط الحديدية ومحطات توليد الكهرباء وغيرها، وتديرها إدارة إجتماعية اشتراكية ، كما ويتفق الاشتراكيون على ان الاجراء التمهيدي الذي يسبق هذه المرحلة يتمثل في القضاءقضاء نهائياً على الاقطاع،وتدمير جميع مشتقاته الاقتصادية والاجتماعية ، وذلك لأن الاشتراكية الحديثة تبدأ فعاليتها ومفعولها حالما يخطو المجتمع من الاقطاع إلى اولى مراحل الرأسمالية .

وتسلك الاشتراكية نهجاً واحداً في جميع البلدان والأقطار والدول عندما تبلغ الاشتراكية في تلك الدول مرحلتها النهائية ، هذه المرحلة تتمثل في تحقق طاقة واسعة من الانتاج تفي باحتياجات الأمة المتزايدة . آنذاك يقوم المجتمع بتنسيق الاقتصاد تنسيقاً عضوياً بحيث يتناسب الانتاج وحاجات المجتمع ، ويضمن التوزيع وفقاً لهذه الحاجات ، وتوضع موازنة دقيقة بين الانتاج واستهلاك الأسواق،وتزول الملكية الخاصة زوالاً تاماً،وتصبح الحكومة مجلس إدارة للمجتمع .

و ــ بين اقتصاد الدولة ورأسمالية الدولة

يخلط الكثيرون من الاشتراكيين بين اقتصاد الدولة ورأسمالية الدولة . ففي الدولة التي يسيطر عليها الاشتراكيون الواقعيون لا يقوم إقتصاد دولة ، بل إنما تقوم رأسمالية الدولة . فالحكومات التي تعمد إلى سياسة اقتصادية منهجية ، اي تعمل بنظرية إقتصاد الدولة ، ليست بحكومات إشتراكية ، بل إنما هي حكومات ترفعها البرجوازية الكبيرة إلى سدة الحكم عندما تتأزم الأوضاع الاقتصادية فينتشر الكساد وتعم البطالة وتتدهور القدرة الشرائية

لدى الأكثرية الساحقة من الأمة، وبذلك يختل التوازن الاجتماعي بين الطبقات الاجتماعية .

في مثل تلك الاحوال تصبح المشكلة بالنسبة للرأسمالية والرأسماليين مشكلة بقاء او لا بقاء ، وهنا تجند الأنظمة الرأسمالية كافة قواها وتتنازل عن بعض إمتيازاتهاوبعض ارباحها وتتخلىعن الكثير من حرياتها للدولةبغية تخطي الأزمة التي تعانيها، فتسلم مقاليد امورها إلى ديكتاتورية فاشية بغية إخماد نيران ثورة اجتماعية يكون العمال على وشك إشعالها ، ولذلك فان اقتصاد الدولة لا يؤدي ابداً إلى ثورة اجتماعية ، بل إنما هو محاولة برجوازية لخنق مثل هذه الثورة في المهد . اضف إلى ذلك ان اقتصاد الدولة يبقي المجتمع منقسماً إلى طبقتين هما: طبقة العمال الأجراء، وطبقة الرأسماليين المتمولين، وتتركز المهمة الاساسية لاقتصاد الدولة على تحقيق الأغراض الثلاثة الآتية :

الأول : إعادة تشغيل الآت الإنتاج .

الثاني : فتح اسواق جديدة .

الثالث : إعادة التوازن بين طبقات المجتمع .

لذلك يتضح لنا تماماً مما ورد اعلاه ان مهمة الهـــدف الرئيسي لاقتصاد الدولة هو إعـــادة الحياة للرأسمالية التي تكون قد دفعت بها المتناقضات التي تكتنفها إلى الانحلال وشفير الهاوية .

وهناك نقطة هامة في اقتصاد الدولة وهي ان اقتصاد الدولة كثيراً مـــا يكون إجراء تمهيدياً لخوض غمار حرب استعمارية قارية او عالميـــة ، وسبب ذلك ان اقتصاد الدولة الذي يستهدف فيما يستهدفه فتح اسواق جديدة ، بغية تشغيل الآلات ، وهذا ما يقتضيه اللجوء إلى الضغط الدبلوماسي فالتهديـــد العسكري فالحرب .

ودليلي على ذلك ما حدث في المانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشية ، فعندما تولى هتلر الحكم كانت المانيا تتخبط في ازمات اقتصادية عنيفـــة ألقت بالمجتمع

الألماني اقتصاداً وسياسة بين براثن الفوضى والانحلال ، وبلغت فيها نسبة العمال المتعطلين عن العمل نسبة لم تألفها طيلة تاريخها ، فساد الكساد وتفشت البطالة تفشياً ذريعاً ، واختل التوازن الاجتماعي بين الطبقات ، واحست البرجوازية بأن اخطاراً محققة تحدق بها وتهدد وجودها ، فارتفعت بالحزب النازي وبهتلر إلى الحكم ، وحالما تسلم هتلر مقاليد الأمور سارع الى تحويل الاقتصاد الألماني من اقتصاد رأسمالي إلى اقتصاد دولة ، فقام بشق الطرق الحربية ، وبدأ يعيد إنشاء الجيش الالماني ويعد مشاريع التسلح ، وهذا ما يعني إعادة الحياة إلى الصناعة ، ومن ثم اخذ ينهج مبدأ جديداً في التجارة الدولية هو مبدأ الضغط والتهديد حين إبرام الصفقات التجارية ، وقد حدث ان فرضت المانيا على تشيكوسلوفاكيا مثلاً شراء الاسبرين الالماني بفولاذ تشيكوسلوفاكي ، كما ظهر إلى الوجود مبدأ المجال الحياتي لالمانيا (Lebensraum) .

لقد ثبت تاريخياً ان الدول الرأسمالية تلجأ الى نظام اقتصاد الدولة عقب كل أزمة دورية تعتري التنظيم الرأسمالي ، كما ثبت ايضاً ان اقتصاد الدولة يؤدي حتماً بالدول الرأسمالية الى الحرب ، وسبب ذلك انه مهما كانت قوة العقول والارادة والحزم التي تضع مناهج اقتصاد الدولة وتنفذها ، فانه لا يمكن ابداً لها ان تقضي على المتناقضات التي يقوم عليها النظام الرأسمالي ، ودليلي على ذلك انه عقب الحرب العالمية الاولى ببضع سنوات لا تتجاوز العشر ، بدأت طلائع الأزمة الدورية متجلية في افق الدول الرأسمالية ، وبلغت هذه الأزمة أشدها عام ١٩٣٢ ، وأصبحت المجتمعات الأوروبية والاميركية في الدول الرأسمالية على وشك ان تنفجر ، فارتفعت البرجوازية الاميركية بفرنكلين روزفلت والحزب الديموقراطي إلى الحكم ، وسرعان ما عمد روزفلت إلى انتهاج سياسته الاقتصادية المعروفة بـ (New Deal) وهي سياسة تلامس سياسة اقتصاد الدولة او بالاحرى تندمج فيها ، كما كانت العسكرية اليابانية التي فرضت هي بالتالي نظام اقتصاد الدولة تقوم آنذاك بحروبها الاستعمارية في الصين ، وعقب ذلك بقليل قام موسوليني باجتياح الحبشة

واستعمارها ، ويلاحظ ان تولي روزفلت مقاليد الحكم في اميركا كان تقريباً في وقت واحـد وتولي هتلر زمام السلطـة في المانيـا ، وقامت الديكتاتوريات العسكرية والمدنية في البلقان .

وكانت معظم الدول الاوروبية تدين بمذهب اقتصاد الدولة ، ولكن إلى أين انتهى بالعالم المطاف أخيراً ، لقد انتهى اقتصـاد الدولة بالعـالم إلى الحرب العالمية الثانية ، هذه الحرب التي عرفنا من ويلاتها وسمعنا عن مآسيها الكثير .

اما فيما يتعلق بموضوع إعادة التوازن الاجتماعي بين الطبقات ، فلا شك اننا جميعاً نذكر الطرق التي لجأ اليها النازيون والفاشستيون والعسكريون اليابانيون لإعادة هذا التوازن المطلوب . فلم يكن امام هؤلاء جميعاً الا وسائل العنف والإكراه ، فامتـلأت المعسكرات بالمعتقلين ، وشرد الاحرار وقيدت الحريات ، وغـدا التفكير جريمة يعـاقب عليها النظام العـام بأشد العقوبات واقساها .

لذلك كله فانني أعجب كثيراً من امر اولئك الاشتراكيين الذين يعتبرون اقتصاد الدولة خطوة تقدمية بالنسبة للنظام الرأسمالي ، فاقتصـاد الدولة في نظري هو الاجراء العنيف الرهيب الذي تلجأ اليه البرجوازية ، عندما تلمس ان زمام الامـور يكاد يفلت من ايـديها ، وهي مع انها تتنـازل عن بعض امتيازاتها وبعض حرياتها في إدارة مشروعاتها ومؤسساتها ، غير أنها تتقاضى ثمن تنازلها هذا ، الارهاب والقسوة والعنف الذي تمارسه السلطـة ضد المجتمع بأسره ، وضد قوى الطليعة بالذات ، بغية تأمين اسباب البقاء لها .

ز ــ الاشتراكية في المجتمع القومي

ان المتتبع لتاريخ تطور الاقتصاد وانعكاسات هذا التطور على الاطر الحقوقية للدول ليشاهد ان البرجوازية الاوروبية قد اتخذت من القضية القومية ومن الدعوة اليها وسيلة الى هدم نظام الاقطاع الذي كان سائداً في الدول الاوروبية حتى بداية القرن التاسع عشر. فلقد غذت البرجوازية الالمانية والايطالية وغيرها من البرجوازيات الاوروبية كل حركة قومية تستهدف توحيد الاقاليم في دولة موحدة او متحدة . وسبب معاضدة البرجوازية الاوروبية لمثل هذه الدعوات القومية المستهدفة الوحدة او الاتحاد ، جلي وواضح . إذ انه عندما بلغت البرجوازية اشدها ونمت صناعاتها واخذت تقذف بالسلع والمنتجات بكميات ضخمة وافرة ، وجدت ان لا سبيل امامها الى الحياة والازدهار الا عن طريق الغاء الحدود بين الاقاليم وتيسير حرية انتقال البضائع والاشخاص ورؤوس الاموال ، وذلك لا يمكن ان يتم الا بتوحيد مثل هذه الاقاليم في دولة موحدة او متحدة ، لذلك يعتبر المؤرخون ان اول خطوة عملية في طريق الاتحاد الالماني جاءت متمثلة في الاتحاد الجمركي (Zollverein) الذي عقدته الاقاليم الالمانية فيما بينها في بداية القرن التاسع عشر . ولا يخفى على القارىء ما لانجاز الاتحاد الجمركي بين الاقاليم الالمانية من فوائد مادية تعود على البرجوازية الالمانية . اضف الى ذلك ان الرأسماليات الاوروبية المتقدمة (Advanced) كانت قد بدأت تتوسع استعمارياً في القارات الاميركية والافريقية والآسيوية ، ونحن اذا ما دققنا في احداث التاريخ نجد أن الدول الاوروبية السباقة الى الاستعمار وانشاء المستعمرات كانت تلك التي حققت وحدتها القومية وجسدتها في اطار حقوقي كأسبانيا والبرتغال وانكلترا ومن ثم فرنسا ، لذلك كانت البرجوازية الالمانية والايطالية تتلوى ألماً تحت سياط الطمع والرغبة الجامحة في الاستعمار ، وهي تشاهد امتيها

ممزقة الاوصال يعيش كل جزء منها في اقليم له كيـــان الدولة في جوهره ومظهره ، لذلك دعمت البرجوازية الالمانية والايطالية كل حركة سياسيـــة تستهدف جمع الشمل في الدولة الموحدة او المتحدة . كما ان التاريخ ليظهر لنا بجلاء ووضوح ان العالم لم يعرف او يشهد للاستعمار الالماني او الايطالي اثراً الا عقب ان حققت هاتان الامتان وحدتيهما القوميتين وجسدتاهما في اطارين حقوقيين .

وهنا قد يتساءل القـــارىء عما اذا كانت الحركة القومية المتوخية تحقيق الوحدة القومية وتجسيدها في اطار حقوقي تعتبر حركة رجعية ؟

انني اجيب انه من الخطأ الفاحش اعتبار مثل هذه الحركة حركة رجعية اذ انها حركة تقدمية تاريخية ، بكل ما لكلمة التقدمية من معنى ومفهوم ، وذلك لان الحركة القومية عندما تستهدف تحقيق وحدة الأمة فانما تستهدف في الوقت ذاته ضرب نظام الاقطاع وتدمير مشتقاته .

لذلك فان الحركة القومية حركة تقدمية وثوروية ، اما ثورويتها فتتجلى في نضالها ضد نظام الاقطاع ، هذا النظام الذي يدعم التفرقة بين الأمة ويصنع من كل إقليم دولة مستقلة ذات سيادة ، ولنا في العـالم العربي وفي دوله المتخلفة خير دليل على ذلك ومثل .

وهنا قد يسأل القارىء عن طابع القومية العربية وجوهرها، وعما إذا كانت القومية العربية ستبقى حركة تقدمية ثوروية في المدى الطويل ؟

وعلى هذا السؤال اجيب بأنه مما لا شك فيه ان الحركة القومية العربيـــة الحالية هي حركة تقدمية ثوروية شكلاً وموضوعاً . ولقد شاهدنا كيف ان هذه الحركة قد ضربت الاقطاع في مصر والعراق وسوريـــة بقسوة وقوة وكيف دمرت كيانه ، وسحقت جميع مشتقاته ، وكيف ايقظت في الفرد الوعي الاجتماعي . وفي نظري ان يقظة الوعي الاجتماعي في الفرد اهم بكثير من يقظة الوعي القومي ، وذلك لان الفرد حينما يعي ذاته اجتماعياً لا تتفتح

في داخله فضائله كمواطن ، بل إنما تتفتح فيه فضائله كقومي يعيش في مجتمع قومي واخيراً كانسان يعيش في مجتمع انساني يضم البشرية بأسرها لذلك فانني اقرر هنا ان الحركة القومية العربية هي في هذه المرحلة ، وفي مراحل تلي . حركة تقدمية ثورية لأنها تهدف الى تحقيق الأغراض الآتية :

ا – التحرر من الاستعمار .

ب – ضرب الأنظمة الإقطاعية في الأقاليم العربية .

ج – توحيد الأقاليم العربية في دولة اتحادية فيدرالية .

وهنا قد يسأل القارىء مرة ثالثة عما اذا كانت الحركة القومية العربية ستتحول بالتالي في أهدافها الى حركة برجوازية ، كما تحولت حركات القوميات الاوروبية الاخرى ؟ وعما اذا كانت الحركة القومية العربية ستنهج مستقبلاً وعقب تبلورها وتجسدها سياسة عدوانية استعمارية تتوخى الغزو والفتح وانشاء المستعمرات ؟

انني اجيب على هذين السؤالين قائلاً بأن الوعي الشعبي او بالاحرى الوعي الاجتماعي في الفرد العربي هو في طريقه الى الاكتمال ، كما وان الظروف الدولية من ثقافية وسياسية ، واعود لأكرر ثقافية ، لن تسمح للبرجوازية العربية بتحويل الحركة القومية في صالحها واستغلالها استغلالاً يمكنها من اجتناء المرابح وتكديس الثروات . فالفرد العربي قد استيقظ اجتماعياً ومن المستحيل تنويمه مرة اخرى . اما على السؤال الثاني فأجيب ان الاستعمار قد اخذ في اعقاب الحرب الثانية يتهاوى وينهار في كل بلد وقطر . ففي آسيا تحررت الهند وسورية الخ ، وفي افريقيا تحررت « غانا » ومصر . وهناك اقطار افريقية اخرى قد تحررت او هي في طريقها الى التحرر ، وهذا دليل على ان الاستعمار قد بلغ ذروة انحلاله ، وهو يلفظ اليوم انفاسه الاخيرة ، لذلك كله فطبيعة الظروف العالمية كلها تمنع وتحول دون اية محاولة جنونية ، قد تدفع بالحركة القومية

العربية الى العدوان والاستعمار ..

وقد يسأل القارىء سؤالاً آخر ، عما اذا كان يتوجب على الأمة العربية ان تكرس كل نشاطاتها بغية اشعال الثورة العالمية وتحقيق اهداف هذه الثورة ؟

وعلى هذا السؤال أجيب ان كل حركة ثورية تستهدف ضرب الاستعمار وتدمير نظام الاقطاع وتحقيق وحدة الامة العربية في اتحاد فيدرالي هي جزء لا يتجزأ من الثورة العالمية ، وهي خطوة أساسية على الطريق الصحيح لتجسيد الدولة العالمية ، فكفاح قبائل « الماو الماو » في افريقيا ضد الاستعمار والحركات التحررية في المستعمرات ، جميع هذه الامور هي معارك حيوية من معارك الثورة العالمية ، لذلك يجب على كل امة ان تكرس جهودها لتحقيق الاهداف الثورية الآنفة الذكر (التحرر من الاستعمار والاقطاع وتحقيق الوحدة القومية) في بلدها وان تمد يد العون اذا استطاعت اليه سبيلا ، الى الشعوب الاخرى في المستعمرات والبلدان التي يسودها نظام اقطاعي او قبلي .

والآن اعود ثانية الى السؤال الذي انطلقت منه عما اذا كانت الاشتراكية قابلة للتحقق في مجتمع قومي ؟

انني اريد ان اقرر هنا ان القومية وتجسيدها في اطار حقوقي هو الدولة الاتحادية ، لا يعتبر ابداً المرحلة النهائية من مراحل جهاد الفرد الانسان، بل انها مرحلة في طريق الانسان الى تحقيق الانسانية وتجسيدها في اطار حقوقي هو الدولة العالمية الاتحادية ، كما وانه لا يمكن ابداً للاشتراكية ان تتحقق قولاً وعملاً الا في ظل مجتمع الدولة العالمية وليس في ظل التعاون بين البشرية الموزعة الى امم في دول مستقلة . لذلك فان الحركات القومية عندما تشن حرباً لا هوادة فيها او لين ضد الاستعمار والاقطاع فانما تتوخى من وراء حربها هذه ، من حيث لا تدري تحقيق الدولة العالمية .

ان العالم اليوم وعقب التطور الهائل الذي طرأ على اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية قد غدا « عالماً صغيراً » ، واصبحت مصالح كل امة متشابكة ومصالح الامم الاخرى ، على صورة لا يمكن ان تنفصم لها عروة او وشيجة ، وان اية ازمة قد تحدث في اي بلد من بلدان العالم تؤثر تأثيراً مباشرا وفعالاً على جميع بلدان العالم .

لذلك لم يبقَ امام الامم من وسيلة او سبيل ، لتدعيم رفاه الفرد الانسان عن طريق الاشتراكيـــة الا في اللجوء الى تحقيق الدولـة العالمية بغية ايجاد هيئة فعالة تقوم بتنسيق الاقتصاد العالمي تنسيقاً يجنبه اولاً الأزمات، ومن ثم يسوده مبدأ سد حاجات البشرية لا مبدأ الربح او حتى مبدأ الربح القومي ذي الطابع الاشتراكي .

كلنا نعلم ان العلم قد وضعنا اليوم على ابواب الكون الكبير ، نعم الكون الكبير في كل أنظمته الشمسية ، وفي كل انهر مجرّاته ، ولا سبيل للانسان للوصول الى هذا الكون الكبير الا في تضافر جهود الامم وقيام دولة عالمية تنسق هذه الجهود والإمكانات. لذلك كله فان الحركات القومية تستنفد اغراضها السياسية والاجتماعية حالما ينتهي عهد الاستعمار او بالاحرى حالما يُنهى عهد الاستعمار وتدمر كل مشتقاته . أضف الى ذلك ان منع الحروب ، والحروب كما نعلم قد اصبحت رهيبة لا يستطيع العقل البشري ان يقدر مدى الأضرار التي تلحقها بالانسانية ، لا يتم الا عن طريق الدولة العالمية ، هذه الدولة التي ستجنب العالم الازمات الاقتصادية وستجسد بالتالي المجتمع الاشتراكي . لذلك كله اؤمن ايماناً مطلقاً وعميقاً بأنه لا يمكن للاشتراكية ان تتحقق في مجتمع قومي ، وذلك لأن ظروف تحقق الاشتراكية تحققاً كاملاً غير منقوص لا تخضع أبداً للدولة القومية في المجتمع القومي ، لأنها تخضع وتُخضع من قبل جميع الأمم في جميع المجتمعات الموحدة الهـــدف في تحقيق الاشتراكية في ظل الدولة العالمية الاتحادية .

يقول البعض ان القومية هي آخر المراحل التي يمكن أن تبلغها الأمـــة

والانسانية معاً ، وان الاشتراكية من الممكن تحققها في مجتمع قومي وتدعيمها عن طريق التعاون والأمم الأخرى ، غير أن التاريخ قد علمنا ان التعاون المنبثق عن الانانية القومية لا يمكن ان يعمر او يدوم على المدى الطويل ، فالتعاون يقوم على أساس التبادل المتكافىء للمنافع ، ومثل هذا التبادل من المستحيل تحققه نظراً للتباين الواضح في توزيع الطبيعة لثرواتها ومواردها بين مختلف البلدان والأقطار .

فهناك كما نعلم اقطار فقيرة وأخرى هائلة الثراء ، غزيرة الموارد ، لذلك فان رفاه الانسانية على ظهر هذا الكوكب لا يمكن ان يتحقق عن طريق تعاون الامم بعضها مع بعض ، بل عن طريق اندماج الامم بعضها في بعض وصيرورة الانسانية في كل أممها وشعوبها عائلة واحدة متحدة موحدة جميع أعضائها متكافلون متضامنون .

نحن نعلم أن من أهم الاهداف الاشتراكية هو مكافحة الاستغلال ، لذلك فان من ابسط البديهيات أن تناهض الاستعمار ، إذ ان الاستعمار هو مركب بشع من الاستعباد والاستغلال ، إنه الاستغلال في أبشع صوره ، غير أننا إذا تمعنا في سلوك الاحزاب الاشتراكية الغربية من بريطانية وفرنسية وغيرها ودرسنا خطواتها في السياسة الدولية لوجدنا أن جميع هذه الاحزاب تعاضد الاستعمار وتعمل جاهدة لتدعيم الانظمة الرجعية لا في العالم العربي فحسب بل في جميع اقطار العالم ايضاً ، وهذه الاحزاب الاشتراكية الغربية لم تقم في الاصل إلا لحماية الرأسمالية . ولنسمع ما قاله الوزير الاشتراكي الفرنسي « سيناس » في مجلس الشيوخ الفرنسي وفي الجلسة المنعقدة في ١٢ مارس اذار سنة ١٩٢٧ ، لقد قال الوزير الاشتراكي « سيناس » ما ترجمته بالحرف الواحد :

« إن مهمة رب العمل لشيء عظيم ، وفي الامكان ممارستها بنبل ، فهل تظنون ايها السادة انني اريد القضاء على النظام الرأسمالي ؟! كلا ايها

السادة ! إنني اعلم جيداً ان في قدرة هذا النظام ان يقوم بخدمة كبيرة خير قيام ، واعتقد ان من مصلحة الطبقات العاملة نفسها ان تلائم بينه وبين ضروريات الحياة الحديثة » .

كما واننا لا شك نذكر أن « غي موليـه » الاشتراكي هو الذي شن حملة العدوان على مصر لتدعيم الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، كما وأننا نشهد مواقف حزب العمال البريطاني من حركات التحرر في المستعمرات البريطانية في كل من افريقيا وجنوبي شرقي آسيا والمستعمرات البريطانيـة الواقعة في المحيط الهادي ، لذلك فان الاشتراكيـة غير قابلة للتطبيق والتحقـق من من الوجهة التحررية الانسانية في نطاق الدولة القوميـة ، إذ ان غريزة العدوان والاثرة والانانيـة تبقى في نطـاق الدولة القومية اللب والموجه والجوهر .

كما وأن هناك نقطة بارزة وحيوية اخرى،وأعني بها انقسام السوق الدولية ، هذا الانقسام الناشىء عن سياسة انقسام العالم سياسياً إلى معسكرين ، المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي ، وسيكون لهذا الانقسام كما يدرك القارىء ولا شك، نتائج وبيلة وخيمة العواقب على الاقتصاد العالمي،وخاصة على البلدان الرأسمالية المتقدمة (Advanced) ومن ثم عـلى البلدان المتخلفة اقتصاديـاً كبلدان الشرق الاوسط ، لذلك فان تحقق الاشتراكية تحققاً كاملاً لا يمكن أن يتم إلا في حالة قيام سوق دولية موحدة ، وقيام السوق الدولية الموحدة مرهون بقيام الدولة العالمية .

وقبل ان أختتم بحثي في الاشتراكية اعود لأؤكد ان القومية وتوحيد الامة في دولة إتحادية هي خطوة ثوروية تقدمية في الطريق نحو الاشتراكية الواقعية . كما وأنني أعود لاؤكد ان حركة القومية العربية هي اليوم وستبقى في ايام قادمة حركة ثوروية تقدمية حتى تتحقق وحدة الامة العربية ، وتتخذ شكلها الحقوقي في الولايات العربية المتحدة . اما شروط قيام الولايات العالمية المتحدة فهي تتلخص كما أرى فيما يلي :

ا – قيام القوميات المتحررة المستقلة .

ب – زوال الاستعمار بكل اشكاله من انتهازية واحتكارية .

ج – زوال الانظمة الرجعية من قبلية واقطاعية ورأسمالية .

د – المساواة بين الامم والشعوب .

ه – اعتماد مبدأ العطاء لا مبدأ التبادل المتكافىء في تعاون الشعوب والامم بعضها مع بعض .

عندما تتحقق الشروط الخمسة الآنفة الذكر يصبح تجسد الدولة العالمية على ظهر هذا الكوكب امراً لا مناص منه او مفر .





الديالكتيكية ، المادية الديالكتيكية ، المادية التاريخية



ا ـــ مدخل

إن الشيوعية هي وفق المفهوم الماركسي المرحلة النهائية التي يبلغها المجتمع في تطوره ، حيث تنتفي في هذه المرحلة من المجتمع جميع المتناقضات وتـــزول الطبقات وتفنى الدولة . ويصف كارل ماركس طريق المجتمع إلى الشيوعية في بدء « البيان الشيوعي » ويقول بما معناه :

«إن تاريخ كل مجتمع عرفته العصور حتى أيامنا هذه، هو تاريخ نضال الطبقات، وليس نضال الطبقات هذا المحرك الأكبر للتاريخ، الا نقل «نضال المتناقضات» الذي يُكوّن دينامية كل واقع ، إلى صعيد المجتمع البشري . فالجـدل مشتبك في كل الكائنات على اختلافها . إنه بين الطبقات الاجتماعية المتباينة ، وبين الماضي والمستقبل ، بين مذهب إنتاج تخطاه التقدم التكنيكي ، وبين مذهب انتـــاج آخر سيطلع به التطور التاريخي ، بين طبقة رجعية وطبقة أخرى تقدمية . إنما يجب أن تتفوق الطبقة التي تجسد التقدم على دعاة الرجعية . ولا تحل الأزمة الناجمة عن الصراع إلا بتخطي الحالة الحاضرة في « مركب » جديد تتضافر إرادة الانسان الحرة مع قوى الطبيعة على تحقيقه ، فالقضية (These) في الحقـــل الاجتماعي هي نضال الطبقات، تنفيها ديكتاتورية البروليتاريا، فتقضي على الطبقات في المجتمع ، وتكون النقيض (Antithese)، ثم يعقبها المجتمع الشيوعي الذي تنتهي عنده حقبة ما قبل التاريخ الانساني ، فتتصالح فيه القضية مع نقيضها في

مركب Synthese جديد لا أثر فيه للتناقض ولا للنزاع ، مركب يسوده الأمن ويغمره الاطمئنان » .

تنبع الشيوعية من فلسفة مناقضة ومناهضة للفلسفة المثالية وهي « فلسفة المادية الديالكتيكية » ، هذه الفلسفة التي تفسر الكون ونشوءه وتطوره تفسيراً مادياً يعتمد العقل والعلم والمنطق الادوات الوحيدة في فهم الكون وتحليل احداثه . وعن الفلسفة المادية الديالكتيكية تنشأ حسب المفهوم الماركسي « المادية التاريخية » ، ووظيفة المادية التاريخية هي تفسير وتحليل تاريخ الاجتماع والمجتمعات البشرية ، ومن ثم تبيان النتيجة النهائية التي ستؤول اليها المجتمعات البشرية ، هذه النتيجة الممثلة بالشيوعية .

إذن فلا طريق لنا لفهم الشيوعية سوى دراسة الديالكتيكية ، فالمادية التاريخية ، فما هو الديالكتيك ؟

يعرف لينين الديالكتيك بقوله :

« ان الديالكتيك بالمعنى الخاص للكلمة هو درس المتناقضات في ماهية الاشياء نفسها » .

ان الديالكتيك ليس بالفلسفة الجديدة ولا بالنظرة الجديدة الى الكون ، فلقد كان للاولين شأن كبير في بحثه ، وخاصة فلاسفة اليونان ، وعلى الاخص هيرقليطس الذي وصف بأنه فيلسوف التغير وعدم الثبات . ولنلاحظ الآن مبدأ التناقض الذي يسود فلسفة هيرقليطس في الجمل الآتية :

« ان الاتحادات هي الاشياء الكاملة وغير الكاملة ، انها التوافق والاختلاف ، انها الانسجام وعدم الانسجام ، عن جميع الاشياء يصدر الواحد ، وعن الواحد تصدر جميع الاشياء » .

ويقول هيرقليطس في مكان آخر :

« اننا ننزل ولا ننزل في النهر نفسه ، وان الطريق التي ترتفع والتي تنحدر واحدة وهي هي نفسها » .

مما ورد يتضح ان هير قليطس يرى ان الكون يتألف من عناصر متناقضة في جوهرها، وان هذا التناقض هو الاساس في الحركة، وفي التبدل الازلي الابدي والتغيير المستمر، وهذا هو اساس الديالكتيك وجوهره.

وهيرقليطس يحظى باعجاب واحترام فيلسوف الديالكتيك الحديث « هيغل » إذ ان هيغل يقول عنه :

« ما من قضية نادى بها هيرقليطس الا تبنيتها في كتابي المنطق » كما ويقف « لينين » مبهوراً مذهولاً وهو يقرأ كلمات هيرقليطس التالية :

« العالم هو واحد لم يخلقه اي اله او انسان، وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية الى الابد تشتعل وتنطفىء وفقاً لقوانين خاصة معينة ».

ويعلق لينين على هذه النظرية ، نظرية هيرقليطس ، بقوله:

« يا له من شرح رائع لمبادىء المادية الديالكتيكية ! »

ولا شك ان القارىء يدرك ان هيرقليطس حينما قال ان العالم كان ولا يزال وسيبقى الى الابد « شعلة حية » فانما كان يعني بان العالم متحرك ابداً ، وحركته وسكونه يتمان وفقاً لقوانين خاصة ، وهذا هو الديالكتيك بعينه .

ويفسر اتباع المدرسة الافلاطونية الحديثة نشوء الكون وتطوره على ضوء الديالكتيك الصوفي ايضاً فيقولون :

« الواحد كان اصل الموجودات ، والواحد خالد لا يتغير ، والموجودات من « العقل الاول » الى الروح الكلية ، الى العقل الثاني ، واخيراً الى الارواح الفردية التي تتعدد بمخالطتها للمادة،وتنفرد، جميعاً تفيض عن الواحد،عن طريق مشاركة متسلسلة بصورة عالة ».

مما ورد يظهر لنا جلياً المنبع الذي استقى منه « هيغل » جوهر وقوانين ديالكتيكه الثلاثة ، التي سنجيء على بحثها فيما بعد ، واعني بالجوهر هذا :

القضية These والنقيض Antithese والمركب Synthese .

« فالعقل الواحد » هو القضية ، والارواح التي تتعدد بمخالطتها للمادة هي

النقيض . غير ان العقل حسب مفهوم هؤلاء الديالكتيكيين المتصوفين يفتش عن ايجاد الوحدة بين القضية ونقيضهـــا، وهم يرون ان الوسيلة الى تحقيق الوحدة المذكورة هي « الوجد » (حلقـات الذكر) حيث يتمكن العقل عن طريق « الوجد » من الاندماج في الله وبهذا ينشأ المركب .

ويستطرد هؤلاء الى القول ان المركب الناشىء عن اندماج العقل في الله ومن ثم عن صيرورته الله ذاته . اقول ان هذا المركب ليس خاليـــاً من التناقض في داخله ، فالعقل والله يبقيان داخل هذا المركب (الناشىء عن الوجد) جوهرين متمايزين، ومن ثم يستطرد هؤلاء الى القول بان التناقض الواقع في صميم الاشياء يبلغ ذروته في الله، وان الانسان عندما يتحدث عن الله يجب ان يستعمـــل في لغته الكثير من الكلمات المتناقضة .

وقد كان لهذه النظرية «الافلاطونية الحديثة» اثر بالغ في توجيه الديالكتيكية الهيغيلية، ومن ثم في تطعيم ديالكتيك هيغل بالمثالية ، هذه المثـالية التي ادت في النهاية الى بروز المادية الديالكتيكية الممثلة في الماركسية .

اضف إلى هذا ان الديالكتيكية (المثالية) اثرت كثيراً في المسيحية ونشأ عن هذا الاثر ما يعرف بالجدل المسيحي ، وكان من ابرز فلاسفة الجدل المسيحي «دونيس الاريوباجي » . ويقال ان القديس بولس قد هداه الى المسيحية ، وكان دونيس الاريوباجي يرى ان الله هو ذرة روحية Monade توحد بين جميع الذرات الروحية ، وهو « عقل كلي » لا يعقـل (لاحظ الديالكتيك التناقض) وكلام لا يوصف ، معصوم عن ان يكون عقلاً وفهماً واسماً ، وليس وجوده على نسق اي وجود ، انه السبب الوجودي لكل وجود ، بل انه خارج كلياً عن مقولة الوجود، لانه قـــائم فوق كل ماهية ، وذلك حسب الوحي الذي صدر عن ذاته .

ويقول الديالكتيكيون المسيحيون انه يتوجب علينـا ان نطلق على هذين الحكمين المتناقضين :

١ - ان الله من جهة اولى الوجود الخالص الذي يحـده اللاوجود ، انه اصل كل موجود .

٢ – ان الله ليس وجوداً مما نستطيع ان ننعته به ، لذلك ينصح الديالكتيكيون المسيحيون بوجوب عدم اللجوء ابداً الى اللاهوت الايجابي الذي يتوخى اثبات وجود الله ، ويقولون بان اللاهوت المصيب هو اللاهوت السلبي الذي يتوقف عند عتبة انكار الادلة والبراهين لقضية وجود الله .

ويسترسل هؤلاء في قولهم انه عندما تصبح القضية قضية معرفة الله ، فان خير معرفة لهذه القضية هو معرفتنا باننا لا نعرف شيئاً ، ويسمي القديس اوغسطين هذه المعرفة « المعرفة بالجهل » .

وقد لاقت الديالكتيكية المسيحية المنبعثة عن الافلاطونية الحديثة انتشاراً واسعاً في المانيا خلال القرن الرابع عشر ، وكان ابرز من جال في هذا الحقل راهب دمينيكي يدعى « جان اكهارت » (١٢٦٠ – ١٣٢٧) وقد حاول هذا الراهب ان يثبت وجود الله ، وذلك وفق « ثالوث الديالكتيك » على الشكل الآتي :

القضية – These اثبات وجود الله الذي هو الوجود ذاته .

النقيض Antithese الله ليس شيئا لولا مخلوقاته وهو غير قابل للمعرفة ليس بالنسبة الينا فحسب ، بل بالنسبة الى نفسه ايضا (فالله كما يقول «اكهارت» لم يكن اِلها قبل الخلق وحينما خلق المخلوقات التي هو وجود لها خلق بذلك نفسه) .

المركب Synthese تتخلى الروح عن نفسها لتتلاشى في الله عن طريق الاتحاد الصوفي .

مما ورد يتضح تماماً ان الديالكتيك حتى في المسيحية يعني كما قال لينين درس المتناقضات في ماهية الاشياء . غير ان القارىء لا شك يرى ايضاً ان جميع انواع الديالكتيك السابقة للديالكتيك الهيغلي والديالكتيك المادي الماركسي كان ابداً يهمل البحث في اثر انعكاس ديالكتيك الطبيعة على المجتمع والتاريخ . وسبب اهمال هذا البحث الجوهري الذي استكمله فيما بعد هيغل فماركس وان ناقض الاول الاخير ، اقول ان سبب هذا الاهمال يعود اولاً واخيراً الى كون الديالكتيك فيما سبق لهيغل وماركس ركز همه على حل مشكلة الوجود وقضية الله . ولما كان الانسان هو ايضاً جزء من الوجود لذلك اصبح من المحتوم وفق القوانين

الديالكتيكية التي تقول بالحركة ان يمتد الفكر الانساني الى بحث انعكاسات ديالكتيك الطبيعة على المجتمع البشري وعلى التاريخ، لهذا ووفق قانون الديالكتيك كما قلت سابقاً كان لا بد من بروز مفكرين اخرين يصولون ويجولون في هذا الحقل كهيغل وماركس وانكلز وغيرهم .

ب — فلسفة هيغل

يعتبر هيغـل (١٧٧٠ — ١٨٣١) والد الديالكتيك الحديث، وذلك لان هيغل هو اول من اقام الديالكتيك على اسس علمية ثابتة ، وخطا بالديالكتيك الى الحقل العلمي وجعل منه فلسفة ايجابية لا تقف عند السفسطة او الجدل المجرد او عند عرض القضية ونقيضها، بل تتعدى هذا جميعاً الى حل القضية وفق المفهوم الهيغلي (اقول وفق المفهوم الهيغلي) وذلك لان الديالكتيك كان حتى هيغل محصوراً في افكاره ومناقشاته وفلسفاته ضمن دائرة « فن البرهان او فن دحض البرهان » . وهذا ما معناه ضمن دائرة سلبية غارقة في السلبية، اذ ان هذه القاعدة لم يكن بامكانها ان تخرج الى الميدان الايجابي ، واعني بهذا الميدان ميدان حل المناقضات وذوبانها وتلاشيها في المركب Synthese لهذا غدا الديالكتيك على يدي هيغل « فن اذابة المتناقضات وتلاشيها » .

قلت فيما سبق من بحثي ان هيغل تأثر تأثراً بالغاً بالديالكتيكية الصوفية وان هذا التأثر جعل الديالكتيك الهيغـــلي مع كونه قد بني على اساس علمي ينحرف او بالاحرى يتجه بهيغل نحو المثـــالية في تفسير الطبيعة وشرح اثر ديالكتيكها على المجتمع الانساني. وهذا الاتجاه يجعل هيغل احد الافراد البارزين المجددين من زمرة فلاسفة الديالكتيك الافلاطوني الحديث، وبصورة ادق احـد فلاسفة الديالكتيك المسيحيين، ولذلك فاننا اذا اردنا ان نصدر حكماً عادلاً على هيغل فان حكمنا سيكون ان هيغل لم يكن ثورياً في فلسفة الديالكتيك اي انه

لم ينحرف بمجرى الديالكتيك انحرافاً جذرياً ومعاكساً تماماً لمجراه السابق ، بل انما سار في المجرى ذاته الذي سارت فيه الافلاطونية الحديثة والمسيحية. ولنسمع الآن ما يقوله هيغل وما تقوله المسيحية :

يرى هيغل ان الفكرة Idea هي خالق الواقع وصانعه، وان الواقع ليس الا الشكل الحادثي للفكرة .

ويقول يوحنا في انجيله وفي السطور الاولى من الاصحاح الاول ما يلي :

« في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ».

نحن نعلم ان الفكرة تسبق الكلمة منطقاً، فالفكرة ثم الكلمة، ولذلك فنحن اذا استبدلنا كلمة « الكلمة » التي جاءت في انجيل يوحنا بكلمة الفكرة وهذا الاستبدال سيكون صحيحاً من وجهة تسلسل الافعال « الفكر فالكلمة » وقلنا:

« في البدء كانت الفكرة، والفكرة كانت عند الله وكانت الفكرة الله، هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان ».

اقول اذا قمنا بهذه العملية البسيطة نرى ان هيغل لا يكتفي في ديالكتيكه بالديالكتيك المسيحي فقط بل انما يذوب فيه ويتلاشى تلاشيا كليا .

اما فضل هيغل كما قلت سابقا فانما ينحصر في امرين : الاول ابراز ما للتناقض من اهمية حيوية في الكون، والثاني قانونه القائل باذابة التناقض في المركب .

يقول هيغل : « ان ما هو واقعي هو عقلي وما هو عقلي هو واقعي » وانه لذلك يجب ان يكون الواقع جميعه في مرتبة الفكر ، وان الفكر متأكد من انه سيجد نفسه في العالم من جديد ومن ان العالم يجب ان ينسجم معه ومن ان العقل الذي ينبغي له ان يبحث عنه في العالم ليس الا العقل ذاته .

ويقول هيغل ان هناك عقلين : الاول عقل مجرد هو عقل الرياضي الذي يعمل في مجال التجريدات ويبقى بذلك خارج الواقع ، والثاني عقل مشخص هو عقل العالم الفيزيائي او المؤرخ الذي يعمل في مجال الواقع عن طريق اصطناع الحيلة

بغية مشاهدة صيرورته .

ويرى هيغل ان العقل هو روح الكون ، وهو الاساس العـام للوجود ، وان المنطق يندمج في الميتافيزيقيا التي هي كما يقول هيغل (الميتافيزيقيا) علم ادراك الاشياء بشكل افكار ، وتعتبر هذه الافكار انهـا تعبر عن ماهية الاشياء . كما ويرى هيغل ان التفكير من حيث هو « التفكير الموضوعي » هو المبدأ الباطني للكون .

ويستطرد هيغل في عرض فلسفته فيقول في الموسوعة ٢٤ :

« كما ان التفكير يكون جوهر الاشياء الخارجية ، بذلك يغدو (التفكير) الجوهر العـام للموجودات الروحية . ففي كل حدس انساني يوجد تفكير . والتفكير كذلك هو العنصر العام لكل تصور ولكل ذكرى ، كما انه العنصر العام لكل فعل ارادي ، وبصورة عامة لكل فعالية نفسية ولكل رغبة . فانواع النشاط النفسي المختلفـة هذه ليست سوى اشكال للتفكير تتأرجح بين الوضوح والابهام » .

ويستطرد هيغل فيقول :

« فالتفكير من هذه الوجهة يبدو لنا على شكل مغاير لما اعتدنا قوله من ان ملكة التفكير هي احدى الملكات التي يتألف منها كياننا النفسي كالحدس مثلاً او التصور او الارادة الخ ... فاذا كنـا نعتبر ان التفكير هو في الحقيقة المبدأ العام لكل وجود ، طبيعيـاً كان ام روحياً ، فهو اذن يشمل جميع الاشياء ويهيمن عليها ، وهو في نظرنا اساس كل شيء . »

وانظر مدى تأثر هيغل بالديالكتيكية الصوفية المسيحية ، وذلك عندما يقول هيغل في الموسوعة الفلسفية ٢٤ ما يلي :

« ان الاله هو وحده المطابقة الحقيقية بين التصور الذهني والواقع » .

ج ـ ديالكتيك هيغل

يقول هيغل ان الديالكتيك يقوم في كل المجالات وتحت جميع الاشكال الخاصة لعالمي الطبيعـــة والروح . فهو يقوم مثلاً في حركة الاجرام السماوية ، وان من طبيعة احد الكواكب اذا وجد الآن في مكان ما ان يوجد ايضاً في مكان آخر . فندرته على الحركة التي هي خاصة به ، هي التي تمنحه ان يكون له هذا الوجود الآخر (وذلك بالنسبة الى المكان الآخر) .

كذلك يوجد في العناصر الفيزيائية صفة جدلية ، وما صفتها الجدلية إلا تلك الظاهرة المناخية ، بل ان نفس المبدأ هو الاساس لكل العمليات الطبيعية ، وهو في الوقت ذاته ما يجعل الطبيعة تندفع من أجل التعالي على ذاتها، وذلك كي تنتج الوعي والروح بالاضافة الى الحياة .

اما فيما يختص بوجود الجدل في عـــالم الروح او بالاحرى في عالم التشريع وعالم الاخلاق فانه يكفي هنا ان نتذكر كيف ان الدرجة القصوى لحالة ما من الحالات (العقدة وسنشرحها فيما بعد) او النوع من النشاط ، تنقلب عادة بموجب التجربة المشتركة الى ضدها .

وهذا النوع من الجدل معروف في الكلمات المأثورة التالية :

« إن الافراط في العدالة هو غاية الظلم » .

ويستطرد هيغل فيشرح هذه النظرية قائلاً :

إنه اذا بولغ في التقيد بالقانون المجرد، فستؤدي هذه المبالغة الى الظلم. كذلك نحن نعرف ، في المجال السياسي ، ان هذين الحدين في تناهيهما ، وهما الفوضوية والاستبداد ، يؤدي عادة احدهما الى الآخر .

ويسترسل هيغل في عرض فلسفة ديالكتيكه فيتنـــاول اثر الديالكتيك في نفس الفرد واخلاقه فيقول :

إن الشعور الجدلي على الصعيد الفردي في المجـــال الاخلاقي تجده في هذه

الكلمات المأثورة والمعروفة جيداً :

« ان الغرور يسبق الانهيار – وسريعاً ما تُفل السكين الحادة جداً »
فالحساسية الجسدية والاخلاقية لهما ايضاً جدلهما . فنحن نعرف ان الدرجات القصوى للألم وللفرح تنقلب احداهما الى الاخرى (لاحظ زيادة الكم تؤدي الى تغير في الكيف)فالقلب المفعم بالفرح يعبر عن فرحه بالدموع ، وغالباً ما يحدث ان الحزن العميق يعبر عن نفسه بابتسامة .

ويرى هيغل ان جميع الاشياء هي ذاتها متناقضة، وان التناقض هو مصدر كل حركة ومنبع كل حياة ، وانه هو اكثر المبادىء (مبدأ التناقض) تعبيراً عن حقيقة الاشياء وماهيتها. ويقول هيغل بان الشيء لا يتحرك إلا لأن في صميمه تناقضاً تنتج عنه قوة ونشاط فاندفاع . ويقول هيغل بان الشيء لا يتحرك لانه يكون مرة هنا واخرى هناك ، بل لانه يكون في اللحظة الواحدة نفسها هنا وليس هنا،لانه يكون ولا يكون في آن واحد في نفس المكان.

ويستطرد هيغل فيستنتج القواعد الفلسفية التالية :

١ – ان الفكرة تؤلف المضمون المشترك للطبيعة والروح .

٢ – إن الفكرة (Idea) لا توجد في الطبيعة الا كعضو خارجي

٣ – ان الطبيعة يمكن اكتشافها في الضمير الديني .

٤ – ان الطبيعة في رأي الضمير الديني هي تجل للذات الالهية .

٥ – ان الطبيعة لا يمكنها ان تأخذ وعياً عن ماهيتها الالهية .

٦ – ان الروح وحدها هي التي يمكنها ان تعي الماهية الالهية للطبيعة .

٧ – ان الله يطلع ماهيته ويجعلها تتجلى في الطبيعة وبواسطتها .

٨ – ان الكون لا تتصرف به المصادفة ولا الاسباب الخارجية العرضية ، بل تدبره العناية الالهية .

ويرى هيغل في العقل الجوهر الذي يكمن ويتكون فيه وجود كل حقيقة ، وان العقل وحده هو الذي يوفر للحقيقة استمرار الوجود ، كما ويرى هيغل ان العقل ليس عاجزاً الى حد لا يمكنه الوصول الى المثل الأعلى،الى وجوب الوجود،

وانه لا يستطيع ان يوجد الا خارج الواقع ، فالعقل هو المضمون اللانهائي ، أي انه كل ماهية وكل حقيقة . أضف الى ذلك ان العقل لا يحتاج ، مطلقاً ، كالفعالية المحدودة ، الى مواد خارجية ووسائل يستمد منها الغذاء والمادة الضروريين لنشاطه ، فهو – أي العقل – يعيش على جوهره الخاص ، هذا الجوهر الذي يصنعه من اجل نفسه . كما وان العقل لا يفترض شيئاً آخر غير ذاته وغايته ، التي هي الغاية المطلقة . ويرى هيغل ان العقل لا يتجلى فقط في العالم المادي ، بل إنما يتجلى ايضاً في العالم الروحي الذي يمثل في التاريخ ، وان هذه الفكرة – Idea – هي الحق والابد والقدرة المطلقة ، وانها تتجلى في الكون ، وهي وحدها (Idea) التي تتجلى فيه بكل عظمة ومجد .

ويستطرد هيغل في حديثه عن العقل فيقول بانه هو الذي تتألف منه القوانين الثابتة التي تحدث بموجبها حركة النظام الشمسي ، وان الشمس والكواكب التي تدور حولها ليس لديها وعي لحركاتها ، وان الانسان هو الذي يستنتج هذه القوانين من الظواهر الطبيعية وهو وحده الذي يعرفها .

وعندما يصل هيغل الى هذا الحد ، وقبل ان يغرق في العقلانية والمادية يعود حالاً الى مثاليته وصوفيته المسيحية فيقول :

« ولكن اذا كنت قد تكلمت عن بدء ظهور هذه الفكرة ، ألا وهي ان العقل يدبر الكون ، واشرت الى ما اعترضها من نقص ، فما ذلك الا لأن هذا النقد ينطبق بتمامه على ما نعرفه لهذه الفكرة (Idea) من شكل آخر ، ألا وهو **ايماننا بهذه الحقيقة الدينية من حيث ان الكون لا تتصرف به المصادفة ، ولا الاسباب الخارجية العرضية وانما تدبره عناية هي العناية الالهية . »**

ويعرف هيغل العناية الالهية بالحكمة المقابلة للقدرة اللانهائية التي تحقق غاياتها ، اي غايات الكون النهائية المطلقة العقلية او العقل ، فالعقل على حد تعبير هيغل هو التفكير الذي يحقق ذاته بكل حرية .

ويرى هيغل ان العناية الالهية هي التي ترسم وتحدد للتاريخ مجراه ، ويسمي هيغل عمل العناية الالهية هذا « بمخطط العناية » ويقول هيغل ان هذا المخطط

يبقى خافياً عن انظارنا، وانه لمن الخسارة بمكان ان نحاول ادراكه .

ولا شك ان القارىء يرى هنا التوافق التام بين هيغل وبين نظرية « المعرفة بالجهل» (Doctrine of Ignorance) واللاهوت السلبي الذي نادت به الديالكتية المسيحية الصوفية .

ويستطرد هيغل الى تفسير التاريخ فيقول: ان التاريخ هو نتاج العقل الخلاق، وان معرفتنا تهدف لان توضح لنا : ان الحكمة الخالدة ، كما انها استطاعت ان تدرك القصد من تحقيق غاياتها في مجـــال الطبيعية ، كذلك ادركته في مجال الروح ، هذا الروح الذي يؤثر في الكون ويتحقق فيه ، فتأملنا في الوجود هو كناية عن نظرة الهية Theodicy او هو تبرير لوجود الله .

اما نظرة هيغل في الخير والشر التاريخيين فهي نظرة تفاؤلية مثالية اكثر منها ديالكتيكية بالمعنى الحرفي للديالكتيك ، من حيث ان الزيادة في « الكم » تؤدي الى تغيير في « الكيف » إذ ان هيغل يقول بان كل مـا في الوجود من شر ، بما فيه الشر الاخلاقي ، لا بد من ان يتعقل (لاحظ كلمة يتعقل ، وقابلها بكلمة ينتفي التي هي التعبير عن الفعل الجذري الثوري للديالكتيك) كما وانه لا بد من الموءالفة بين الروح التي تفكر، وبين « السالب »(الشر). ويقول هيغل بان وسيلتنا الى تحقيق هذه الالفة بين الروح و « السالب » فالسالب هي معرفة «الموجب » الذي فه يتلاشى السالب، فالسالب هو لحظةتابعة للموجب (لاحظ هذا التعبير) وبما انها كذلك فان « الموجب » متعـالٍ عليها . وعندما نأخذ وعياً عن غاية الوجود النهائية(وهي خير في جوهرها على حد ايمان هيغل) ندرك أن هذه الغاية قد تحققت فيه بالفعل ، وان الشر لم يتبد الى جانب هذه الغاية بمقدار تبدي الغاية نفسهـا . وينتهي هيغل الى تقرير ما يلي :

ان مقولة « السالب » التي سبق الكلام عنها ، ترينـا كيف ان ما هو نبيل وجميل في التاريخ يضحى به على هيكل « السالب » ولكن العقل لا يلبث ان يدفع السالب ليحل الغاية الايجابية محله .

و ـ قوانين الديالكتيك الثلاثة :

هناك ثلاثة قوانين منبثقة عن الديالكتيك الهيغلي تؤمن بهـــا الماركسية في ديالكتيكها المادي وتتبناها وهـذه القوانين هي :

ا – قانون وحدة المتناقضات .

ب – قانون العبور من الكمية الى الكيفية .

ج – قانون نفي النفي .

١ – قانون وحدة المتناقضات :

ينص هذا القانون على ان التناقض هو ينبوع كل حركة وحياة، وان الحركة الذاتية مستخلصة من هذا الواقع ، ويقول هذا القـانون ان كل شيء يوازي ذاته وينفي ذاته معاً .

فالزهرة مثلاً هي زهرة ونفى للزهرة في الوقت نفسه ، وذلك بقدرة الزهرة على ان تصبح ثمرة . اما سبب حياة كل كائن فهو ان الكائن يحمل داخل ذاته متناقضات تتيح له التطور وتبعث فيه الحركة .

وقد اعجب لينين بهذا القانون فضمه الى المادية الديالكتيكية، واشبعه دراسة وتطبيقاً في العديد من مجالات الفكر المادي الديالكتيكي . وسبب اعجاب لينين بهذا القانون –قانون وحدة المتناقضات– يعود الى أن لينين رأى ان هذا القانون يفسر عدم وجود « المحرك الاول » (الله) منطقاً وعقلاً ، وان وجود المتناقضات داخل عضو من العناصر هو الذي يؤدي بالتالي الى تفاعلها فتحركها فحركتها .

٢ – قانون العبور من الكمية الى الكيفية :

هناك نظرتان في هذا القانون ، النظرة الاولى وهي نظرة المادية الميكانيكية

التي تقول ان تطور العالم يتم نتيجة لتبدلات كمية محضة في الاشياء ، امـا النظرة الثانية وهي النظرة الماركسية فتقول إن التطور يتم بتبدلات كيفية ، وان كل تبدل يطرأ يكون بادىء ذي بدء، كميـاً ثم يزداد « كما » حتى يبلغ حداً يدعوه هيغل « بالعقـــدة » حيث لا يستطيع ان يتحول فيه الشيء ويبقى في الوقت ذاته نفسه ، (أي لا يعود الشي يوازي ذاته وينفي ذاته معاً) .

وهنا تنقطع العقدة او تنفجر اذا جاز لنا هـذا التعبير (أي تحدث الثورة) فتتبدل « كيفية » الشيء .

ويضرب الماديون الديالكتيكيون المثال التالي :

اذا سخّنت المـــاء حتى درجة مئة سنتيغراد ثم تابعت تسخينها فارتفعت حرارة الماء الى مـــا فوق المئة سنتيغراد فعندئذ لا يستمر الارتفاع الكمي في الحرارة، بل انما يتبدل الماء الى بخار، وبذلك يحدث تبدل كيفي، وهذا ما يحدث ايضاً اذا تدنت درجة حرارة الماء إلى تحت الصفر، فانه عندئذ يتبدل « كيفية » اذ يغدو جليداً .

٣ – قانون نفي النفي :

يحدد هذا القانون القضية والنقيض والمركب: (These Antithese, Synthese) كمراحل للتطور . فالقضية تتداعى تحت تأثير متناقضاتها التي تضج بالتنـــافر والخصام، فتخلي المكان للنقيض الذي ينفي القضية، ويحاول القضاء على المتناقضات غير انه (أي النقيض) لا يوفق في محـــاولته الى محو آثار المتناقضات القائمة في القضية فيرث عنها عناصر نزاع وصراع تطيح بكيانه، فيقوم المركب على انقاضه ويبني هيكله من العناصر الطيبة للقضية والنقيض معـاً . وبهذا ينفي المركب النقيض الذي بدوره ينفي القضية، وبذلك يصبح المركب نفي النفي .

ويُضرب على ذلك المثل التالي :

البذرة التي تصبح شجرة، فالشجرة التي تعطي الثمرة هي نفي للبذرة، والثمرة التي تحملها الشجرة هي نفي للشجرة، إذن فالثمرة هي نفي نفي .

هذه لمحة سريعة عن فلسفة هيغل الديالكتيكية ، وقد سعيت كما يلاحظ القارىء ان أعطي لمحة خاطفة عن جميع آراء هيغل في الله ونشوء الكون والاخلاق والعقل والتاريخ في مجراه وتطوره، وسبب ذلك ان الانسان لا يستطيع ان يفهم الماركسية في ماهيتها الديالكتيكية وماديتها التاريخية دون ان يلم بديالكتيك هيغل وذلك لانه من هيغل، ومدرسته تفرعت النظريات الديالكتيكية الحديثة من يمينية ويسارية كالماركسية .

ان كارل ماركس يعتبر الثائر الاول على المدرسة الديالكتيكية الهيغلية وعلى جوهر فلسفتها ، وذلك في نظرته الى ردود الافعال الناشئة عن التناقض الذي هو في نظر الفلسفتين الهيغلية والماركسية أساس كل حركة وحياة وتطور في الحياة . وكارل ماركس مع نقده الشديد للفلسفة الهيغلية يقر ويعترف بجميل هيغل وفضله في هذا المضمار ، وهو يقول بصريح العبارة بانه اقتبس من الفلسفة الهيغلية النقاط العلمية المجردة ونحن لا نستطيع مع عدم اتفاقنا وهيغل في الكثير من ابواب فلسفته إلا ان نقرر ان هيغل كان من ابرز فلاسفة عصره ان لم يكن ابرزهم جميعاً ، وانه احد الفلاسفة القلائل الذين ساهموا مساهمة فعالة في تخطيط وبناء الفلسفات الحديثة للدول البرجوازية ، كما وأن اثره بارز وفعال في النظريات الاشتراكية المثالية كالاشتراكية البريطانية وغيرها .

اما مآخذنا الرئيسية على « هيغل » فهي تصب في ان فلسفة هيغل قد أدت خدمات جلّى للطبقات البرجوازية المتوسطة والكبيرة ، وقد عملت على بلبلة افكار الطليعة من « الانتلجنسيا » وساعدت على تدعيم النظام القيصري الاستبدادي، وتدعيم الدولة الالمانية التي كانت تشرف عليها آنذاك الارستقراطية والرأسمالية والعسكرية الالمانية . وكان هيغل ينظر الى الدولة كجوهر مقدس دون ان يحدد شكل الدولة او يحدد اتجاهاتها ومذاهبها الاجتماعية ذات المحتوى الانساني، ولهذا لاقت فلسفة « هيغل » تحبيذاً وترحيباً شديدين من قبل القيصرية

الالمانية التي اعتبرتها الفلسفة الرسمية للدولة .

ومن المؤسف ان يكون فيلسوف كبير كهيغل نسي او تتناسى العمال والفلاحين كطبقة تشكل الاكثرية الساحقة من الامة ، ونسي او بالاحرى تناسى دورها الهام والحيوي في التاريخ ، ونسي او بالأحرى تناسى أبسط حقوقها في الحياة ، اذ ان مثاليته وايمانه بوجود ما اسماه « بمخطط العناية الالهية » قد جعلت من فيلسوف الصراع والديالكتيك فيلسوفاً يؤمن بالقدر والقدرية .

لقد كانت تنتاب « هيغل » ازمات ضمير عنيفة ،وكان يلمس ان فلسفته لم تحل مشكلة الفرد الانسان ، لذلك بذل في جميع مؤلفاته جهوداً حثيثة لايجاد قواعد ومناهج انسانية لتربية الفرد كمواطن في ظل الدولة القومية ، وتربية الانسان كانسان ، ولكن من المؤسف ان جميع جهود هيغـــل في هذا المضمار قد لاقت فشلاً ذريعاً ، ولذلك جاء كل مـا خطه وكتبه عن هذا الامر غامضاً مبهماً لأن الدولة، هذا الكيان « المقدس » حسب ايمان هيغل ، والدولة القيصرية الالمـانية بالذات ، كانت تسد أمامه طريق الحق والحقيقة .

وهذا الايمان العميق بالدولة ككيان مقـــدس انحرف في النهاية بهيغل عن جوهر فلسفته بالذات ، وضرب عرض الحائط بقـــانون اذابة المتناقضات في المركب (Synthese)ونفيها نفياً كلياً،اذ أنه سعى في نشاطاته الفلسفية لا لينفي المتناقضات بل ليعقد صلحاً بينها ، والصلح كما يعلم القـاريء بين المتناقضات امر مستحيل التحقق . لقد دعا الى المؤالفة بين الروح التي تفكر وبين « السالب » « الشر » على حد تعبيره ، واعتبر الشر لحظـــة تابعة للموجب ، وغرق في خضم « فكرته » « Idea » وجعل هذه « الفكرة » في جوهرهـا خيرة ، فأغرق في التفاؤل والايمان بأن جوهر الخير في « الفكرة » لا بد ان ينتصر،وأن العقـل لا بد ان يطرح السالب « الشر » ليحل الغاية الايجـابية محله . وبذلك غذى هيغل روح الاتكالية في الجماهير وجعلها تستسلم الى مصيرها منتظرة من الشر أن « يتعقل » حسب تعبير هيغل ، ومنتظرة من العقل ان يسود فينفي المتنـاقضات في المجتمع ، غير عالم ان سيادة العقل وتحقق الحق والعدل في المجتمع هو النتاج

الآلي والوحيد لصراع المتناقضات داخل المجتمع ، وان الحركة في جميع اشكالها ومجالاتها ، لا العقل ولا «لعقل الشر »»هي وحدها التي ستدفع المجتمع في النهاية الى تجسيد الحق والعدل في رحابه ، لذلك كله فانني شخصياً اعتبر « هيغل » حسب اجتهادي مفترق الطرق للديالكتيك ، اذ ان من هيغل تبدأ حركة الديالكتيك الجديدة ، الحركة الماركسية ، التي لا تسير متوازية والديالكتيك الهيغلي ، وانما تسير في اتجاه معاكس له تماماً ، اتجاه لن يمكنها ابداً ، بعد انطلاقها من قوانين الديالكتيك الهيغلية الثلاثة ، من الالتقاء بها من جديد او الاتفاق معها، او حتى مهادنتها، وبهذا يقول كارل ماركس في كتابه «رأس المال» الجزء الاول ما يلي :

« ان طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيغلية من حيث الاساس فحسب ، بل انما هي ضدها تماماً ».

ويقول ستالين في كتابه المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ترجمة خالد بكداش) الصفحة — ١٣ —:

« عندما يعرّف ماركس وانكلز طريقتها الديالكتيكية يرجعان عادة الى هيغل ، باعتباره الفيلسوف الذي ابان الخطوط الاساسية للديالكتيك ، غير ان ذلك لا يعني ان ديالكتيك ماركس هو عين ديالكتيك« هيغل» لان ماركس وانكلز لم يقتبسا من ديالكتيك « هيغل » سوى « نواته العقلية » وطرحا قشرته المثالية ثم وسعاه وانمياه واعطياه طابعاً علمياً حديثاً » .

ز ــ الماركسية :

ليست الماركسية نظرية جديدة في علم الاقتصاد السياسي فحسب، بل انها مفهوم عام للعالم ونظرة فلسفية شاملة الى الكون . فكارل ماركس ليس

بفيلسوف مجدد فحسب ، بل انما هو فيلسوف ثوروي بكل ما لكلمة الثوروية من معنى ومفهوم ، اذ إن في ماركس يبدأ مفهوم جديد للفلسفة ، مفهوم يتناقض والمفهوم المثالي ، هذا المفهوم الذي منه تنبع جميع الاديان من يهودية ومسيحية واسلامية وغيرها من المذاهب الميتافيزيقية . ان فلسفة ماركس تهتم في جوهرها بجميع القضايا التي تمس من قريب او بعيد مشكلة الانسان ، انها تعالج قضية نشأته في الكون ، والمكان الذي يشغله ، ومهمته على هذه الارض ، ومصيره التاريخي ، وحريته وطريقته لممارسة هذه الحرية ، وموقفه من قضية الله كفكرة وجوهر ، وهي ، أي الماركسية ، تعنى بجميع ما تفرع ويتفرع من الفلسفات من مذاهب ، وذلك منذ القدم حتى اليوم .

وانا لا اقول هنا ان ماركس هو الذي خلق الماركسية ، بل ان الماركسية هي ككل علم او مذهب نتاج لجهود جماعية منذ هرقليط حتى ماركس . غير ان فضل ماركس يبرز في تنسيق هذه الجهود في نظرية جديدة لها قوانينها الخاصة . وهذا لا يعني ابداً انتقاصاً من قدر ماركس إذ ان ماركس قد اضاف الى تلك الجهود الجماعية جهوداً لولاها لما استقامت للماركسية ، كنظرية ومفهوم للكون ، قواعد وأسس .

وقبل ان اتابع حديثي عن الماركسية يحتم علي الواجب ان أشير الى الجهود القيمة التي بذلها رفيق ماركس وصديقه فريدريك إنكلز ، هذه الجهود التي أدت إلى تبلور الماركسية على أسس علمية تعتمد العلوم الطبيعية دليلاً وبرهاناً ، وقد جاءت جهود انكلز بارزة في كتابه المشهور « ديالكتيك الطبيعة » هذا الكتاب الذي أعتبره معادلاً في أهميته لمؤلف ماركس المشهور « رأس المال » .

فلقد كانت هناك حتى ظهور الماركسية نظرة واحدة ومفهوم واحد للكون ، وكانت تلك النظرية وهذا المفهوم تعتمدان « الله » خالقاً ومحركاً اول للكون ، وترى ان الله قد خلق جميع ما في هذا الكون من شموس وكواكب واقمار وحيوان ونبات وجماد ، وان « الله » هو الذي يدير ويوجه الاشياء كلها في جميع عناصرها . وعن هذه النظرية نشأت « الميتافيزيقيا » ، ونشأت جميع المفاهيم

التي تعيش بمنأى عن العقل والمنطق وبالتـالي عن الادراك الانساني. وكان اول من سدد إلى «الميتافيزيقيا» طعنة نجلاء الفيلسوف الالماني «عمانوئيل كانت» اذ جاءت نظرية «كانت» الكونية، ومن ثم نظرية «لابلاس» في تفسير تكوين الاجرام السماوية من دوران «الكتل السديمية» بمثابة الثورة على النظرية القديمـة القائلة بان النجوم وسمواتها هي صورة منذ الآلاف او الملايـين من السنين عن الابدية اللامتحركة. ومن ثم جـــاء «داروين» الانـكليزي ليقول بأن الحياة نشأت وتطورت من «الخلية الحية» الاولى «البروتست» حتى الانسان، واخيراً جاء ماركس ليوجه الضربة القاضية الى «الميتافيزيقيا» التي تعتمد «الله» لها مفهوماً وجوهراً، وليطلع على العالم بالفلسفة الماركسية التي يتفرع عنها الآن ما يعرف بالمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية.

ح ـ المادية الديالكتيكية:

قلنا ان المادية الديالكتيكية تتعارض و«الميتافيزيقيا» تعارضاً تاماً وتختلف وإياها اختلافاً جوهرياً، وقد أبان ستالين في كتابه المعروف «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية» أوجه التعارض بين الماركسية والميتافيزيقيا اذ قال في الصفحة ١٦ من كتابه المذكور — ترجمة خالد بكداش — ما يلي:

«تتميز الطرق الديالكتيكية الماركسية بالخطوط الاساسية التالية.

«أ — إن الديالكتيك **خلافا للميتافيزيقية**، لا يعتبر الطبيعة تراكماً عرضياً للأشياء، او حوادث بعضها منفصل عن بعض او احدها منعزل عن الآخر، بل يعتبر الطبيعة كلها واحداً متماسكاً، ترتبط فيه الاشياء والحوادث فيما بينهـا ارتباطاً عضوياً ويتعلق احدها بالآخر، ويكون بعضهـا شرطاً لبعض بصورة متقابلة.»

ب – « ان الديالكتيك خلافاً للميتافيزيقية ، لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود ، حالة ركود واستقرار ، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين ، حالة تجدد وتطور لا ينقطعان، ففيها دائماً شيء يولد ويتطور وشيء ينحل ويضمحل. »

ج – « ان الديالكتيك، خلافاً للميتافيزيقية، يعتبر لها حركة التطور حركة نمو بسيطة لا تؤدي التغيرات الكمية فيها الى تغيرات كيفية ، بل يعتبرها تطوراً ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية، الى تغيرات ظاهرة واساسية ، أي الى تغيرات كيفية. ».

مما ورد يتضح ان المادية الديالكتيكية هي المفهوم الماركسي في الفلسفة،وهي كما يرى القارىء تعتمد المادة جوهراً ونقطة لانطلاقها وترى ان التناقض الذي يكتنف المادة هو أساس كل حياة ووسيلة كل نمو وتطور، وان وحدة المتناقضات في المادة (قانون وحدة المتناقضات) . هي التي تؤدي الى التبدل الكيفي، وهي التي تخلق الحركة وتجعل جميع الاشياء متحركة ابداً ، والحركة كما ترى المادية الديالكتيكية ليست مجرد انتقال آلي، بل انها التبدل الكيفي المستمر ، كما وان الجمود ، او السكون ، ليسا سوى مظهرين ، وهما حالتان خاصتان من حالات الحركة ، والحركة لا يمكن ان تخلق خلقاً ، كما ولا يمكن ان تباد ، لان التركيب المادي للمادة ، هذا التركيب القائم على التناقض يجعل المادة في حركة دائمة، وكل ما يمكن ان يُعمل بالنسبة للحركة فهو توجيهها لا خلقها أو إبادتها كما قلت آنفاً ، والحركة هي شكل من اشكال الوجود للمادة ومظهر من مظاهرها .

وبهذا يقول إنكلز في كتابه « ديالكتيك الطبيعة »ما يلي:

« إنما تتحرك المادة في مدار خالد، ولا ريب انها دورة لا تكتمل إلا في مدد ليست سنتنا الارضية وحدة قياس كافية لها ، دورة فيها ساعة النمو الاعلى ، ساعة العضوية ، وكذلك الساعة التي تحيا فيها كائنات تعي ذاتها وتعي الطبيعة ، هذه الساعة تقاس بمثل الدقة الصارمة التي يقاس بها المكان الذي توجد فيه الحياة ووعي الذات ، وهي دورة كل نمط متناه من انماط وجود المادة سواء

أكان شمسياً او سديمياً ، حيواناً مفرداً أم جنساً من الحيوان ، هي كلها معاً عابرة عارضة، وحيث ليس ثمة شيء خالد الا المادة التي هي في تغير خالد في حركة خالدة، وذلك وفقاً للقوانين التي تحكم حركتها وتغيرها .

ثم يستطرد انكلز في القول في الكتاب ذاته :

«ولكن أياً كان التواتر والكثرة، واية كانت الدقة الصارمة المطلقة الصرامة التي تتم بها هذه الدورة في الزمان والمكان ، ومهما كان عدد ملايين الشموس والارضين التي تولد وتفنى ، ومهما بلغ الزمن اللازم لكي تستقر وتتوطد الحياة العضوية في نظام شمسي ما ، ولو انحصر الامر في سطح كوكب واحد ، ومهما كانت لا تحصى الكائنات العضوية التي كان عليها في البدء الظهور والفناء قبل ان يخرج من داخلها حيوانات ذات دماغ قادرة على التفكير، وقبل ان تجد هذه في مدة قصيرة من الزمن الشروط الخاصة بحياتها ، ثم تباد بعدئذ ، هي ايضاً دون رحمة، ازاء كل هذا نحن موقنون كل اليقين بأن المادة في كل تحولاتها تبقى هي اياها بقاءً خالداً ، وان ليس ثمة اية صفة من صفاتها يمكن ان تفقد ، وانها بالتالي اذا كان عليها يوماً في الارض ، بضرورة حتمية لا مرد لها ، ان تبيد وتسحق ازدهارها الاعلى المتجلي في الدماغ المفكر ، فيجب بالضرورة والحتمية ذاتها ان تعيد انتاج الدماغ المفكر في أي مكان آخر وفي اي زمان ».

مما ورد يتضح مدى اثر نظرية « كانت ولابلاس» الكونية ، ومن ثم نظرية « داروين » البيولوجية في المادية الديالكتيكية، فالشيء الخالد الوحيد في الكون هو المادة في اصغر جزئياتها ، والتناقض في عناصرها هو كما ترى الديالكتيكية وسيلة كل نمو وتطور ، فلا مكان اذن هناك لخالق او محرك اول ، فالحركة تنبع من المادة ،وللمادة كما ترى الماركسية، فهن حي متحفز، وبذلك يقول انكلز :

« إنما اولى خصائص المادة واهمها هي الحركة لا من ناحية كونها حركة آلية ورياضية فحسب ، بل من حيث هي ذهن حي متحفز ،او من حيث ما يسودها من قلق على حد تعبير « يعقوب بوهم »

والمادة وفق المفهوم الماركسي ليست كتلة فحسب ،بل هي طاقة ايضاً،والطاقة

هي الحركة ، ولا يمكن ابداً ان تفصل المـــادية الديالكتيكية بين الكتلة والطاقة ، إذ انها ترى انه لا انفصام بين الكتلة والطاقة ، وذلك بسبب ما يكتنف المادة من تناقض ، كما ويقول الماركسيون ايضاً ان كل عنصر هو كتلة وطـاقة ، ويستشهدون على ذلك بان العالم الرياضي « لابيديف » « Lebedev » قد اثبت علمياً ان للضوء كتلة ايضاً ، وانه لا توجد هناك مـــا تعرف بالطاقة المجردة (Pure Energy) كما وان العلوم النووية الحديثة قد اظهرت الارتباط الذي لا تنفصم له عرى ، بين الكتلة والطاقة ، ويستطردون في استشهادهم الى القول بان التفاعل النووي هو في الاساس والجوهر عملية تحول كيفي ، إذ بتحول جزء من المادة ذو كتلة وطاقة معينة الى ضوء وحرارة لهما كتلة وطـــاقة تساوي كمية الطاقة التي كانت مختزنة في الكتلة قبل التحول .

واخيراً يستشهدون بقول اينشتاين القائل بان الكتلة هي حالة موقتة للطاقة ، وان الطاقة هي حالة وقتية للكتلة ، وان الطـاقة والكتلة غير قابلتين للانفصام او الفناء .

أضف الى ذلك ان الماركسيين على حد تعبير انكلز لا يمكن ان يتصوروا المادة دون حركة (طـــاقة) ، كما وانه لا يمكن ايضاً تصور الحركة (الطاقة) دون مادة ، وهم يرون في الكتلة قيـاساً للسكون (القصور الذاتي) (Inertia) وفي الطاقة قياساً للحركة .

ويرى الماركسيون ان الكون في مجموعه وحدة كاملة ، وانه لا يوجد هناك اي عنصر يمكن الا يتأثر بالعناصر الاخرى الموجودة في الكون ، وبهذا يقول انكلز في رسالة له الى ماركس مؤرخة في ٣٠ ايار « مايو » ١٨٧٣ ما يلي :

« إن حركة جسم منعزل ليست موجودة . . . وليس ثمة ما يقـال في جسم خارج نطاق الحركة ، عديم كل صلة بالاجسام الاخرى » .

ويذهب الماركسيون الى تطبيق قانون التنــاقض على حركة الكواكب السيارة فيقولون بان حركة الكواكب السيارة ليست ممكنة الا بصراع الاضداد ويبرهنون على ذلك بانه لو لم يكن ثمة جذب لاندفع الكوكب السيـار في خط

مستقيم وفقاً للمماس ، كما ولو لم يكن هناك ثمة عطالة لاندفع الكوكب السيار في الاتجاه المعاكس ولسقط عمودياً في الشمس . ويقولون ايضاً ان صراع الاضداد يتخذ حتى من الذرة ميداناً له . ففي الذرة كما برهن الفيزيائيون طاقات جاذبة واخرى طاردة ، ومن ثم يقرر الماركسيون بان المادة خالدة في الزمان وهي غير محدودة بمكان، كما وانها منبع كل حركة ومنبع التبدل والتغير ، والجوهر في الانتقال من الكمية الى الكيفية . وهي بالتالي لم تخلق ولا يمكن ان تفنى او تباد ، وان جميع التحولات التي تحدث في الكون اللامتناهي ، هي بمثابة تحول لامتناه لمختلف انواع المادة التي هي حركة دائمة .

أضف الى ذلك ان المادية الديالكتيكية على طرفي نقيض والفلسفة الهيلوزوية (Hylozoism)، هذه الفلسفة التي تقول بأن لكل نوع من انواع المادة خصائص الحياة والحساسية والفكر ، إذ تقول المادية الديالكتيكية ان الحياة والحساسية والفكر لا تظهر في المادة الا في مراحل تطور راقية جداً من « تعضون » المادة (Organism) . كما وان المادية الديالكتيكية على خلاف جوهري و « الآلية » إذ ان « الآلية » تعتبر جميع التبدلات الكيفية مجرد انتقالات في المكان ، بينما ترى المادية الديالكتيكية ان « الآلية » ليست سوى شكل للصيرورة الكونية .

وتعارض المادية الديالكتيكية النظرية الهيغلية القائلة بان الفكر « او الفكرة »(Idea) هي شيء منفصل عن العالم ، وان الفكر متقدم على الطبيعة، اذ ترى المادية الديالكتيكية انه لا يمكن ابداً فصل الفكر عن المادة المفكرة، كما وان تقدم الطبيعة على الفكر أمرٌ محقق، أضف الى ذلك ان العقل ذاته ليس سوى نتاج المادة الاعلى ، وبذلك يقول فريدريك انكلز في كتابه « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية » ما يلي :

« ان العالم المادي الذي تدركه حواسنا، والذي ننتمي اليه نحن انفسنا ، هو الواقع الوحيد، اما إدراكنا وفكرنا فهما ، مهما ظهرا رفيعين ساميين ، ليسا سوى نتاج مادي جسدي هو الدماغ ... إن المادة ليست من نتاج العقل ، بل

ان العقل نفسه ليس سوى نتاج المادة الاعلى .

وتقول المادية الديالكتيكية رداً على فلسفة هيغل إنه من المستحيل أن تسبق فكرة ما، عن شيء ما،عن وجود هذا الشيء،إذ ان الفكرة عن الشيء هذا تكون ابداً لاحقة، لا سابقة . فان الواقع على حد تعبير ماركس وانكلز ليس هو الشكل الحادثي للفكرة ، بل ان الفكرة هي انعكاس للحركة الواقعية المنقولة الى الدماغ البشري والمستقرة فيه . لذلك ترى المادية الديالكتيكية ان الكون ليس من نتاج فكر ازلي أبدي ،بل انما هو نتاج المادة المتحركة . ولهذا يعتبر ماركس ان كل شيء مقلوب رأساً على عقب في فلسفة هيغل التي تعتبر « الفكرة » سابقة لوجود الكون

وتعارض المادية الديالكتيكية النظرة المثالية التي تقول بانه ليس من الممكن ان نعرف العالم « والاشياء بذاتها » وتقول بانه من الممكن لنا ان نكتشف عن طريق العمل والعلم والتجربة قوانين العالم والكون، وبذلك يقول انكلز في كتابه « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية » ما يلي :

« إن اعظم رد حاسم لهذه النزعة الفلسفية «عدم امكان معرفة العالم والاشياء بذاتها » ولكل نزعة اخرى غيرها، هو العمل،وعلى الاخص التجربة والصناعة ، فاذا استطعنا ان نبرهن على صحة فهمنا لحادث طبيعي بخلق هذا الحادث بانفسنا، وباحداثه بمساعدة شروطه، وباستخدامه فوق كل ذلك في سبيل أغراضنا،ففي ذلك القضاء على الشيء بذاته ».

ط ــ اخلاقية المادية الديالكتيكية:

ترى المادية الديالكتيكية ان القيم الأخلاقية في مختلف المذاهب الأخلاقية ، انما تنبع اولاً واخيراً من الظروف الاقتصادية الناجمة عن مختلف الانظمة

الاقتصادية التي عرفها المجتمع البشري . فلكل نظام اقتصادي مذهب اخـلاقي خاص به، وهذا المذهب يرمي الى تدعيم الكيان السياسي والاجتماعي للنظـــام الاقتصادي القائم،فعلىالباحث على حد تعبير انكلز ، إذا ما اراد ان يتعرف على التحولات والتغيرات في شتى وجوهها ومنها الاخلاقية ، ألا يبحث عن اسبابها في عقول الناس او في سعيهم وراء الحق والعدل الازليين ، وانمـا عليه ان يبحث في اقتصاديات العصر الذي يعنيه ، وفي التغيرات التي تطرأ على اسلوب الانتـــاج والتبادل .

لذلك فان المادية الديالكتيكية ترى ان لكل عصر يسوده، اسلوب معين من اساليب الانتاج ، مذهبه الاخلاقي الخاص به ، فلنظام الاقطاع مذهبه ، وللنظام الرأسمالي مذهبه هو الآخر، وبالتالي النظام الشيوعي مذهب أخلاقي خاص به .

وترى المادية الديالكتيكية ان الفضائل تنبع من نبع واحد هو الاشتراكية المتطورة الى شيوعيـــة ، إذ أنه في المجتمع الاشتراكي ، فالشيوعي ، تتحقق اهم الفضائل المثلة بعدم استغلال الانسان للانسان ، وعدم استعبـاد طبقة اجتماعية لمختلف الطبقات الاجتماعية الأخرى ، وتوطيد حق الانسان في الحياة لا بوصفـه يقدم للمجتمع خدمات نافعة بل بوصفه انساناً . وترى المـاركسية ان الانسان يكتسب وجدانه وضميره اكتساباً، وذلك اثناء تعـامله والطبيعة، اذ ان معيشة الانسان الاجتماعية هي وحدها التي تحدد على حد تعبير كارل مـاركس ادراكه واحاسيسه ، وهي التي تخلق فيه الضمير والوجدان .

ولما كانت المادية الديالكتيكية تؤمن بالحركة،وتؤمن بان المجتمع في حـالة حركة دائمة وفي حالة نمو وتطور دائمين ، لذلك تؤمن ايضاً بان المفاهيم الاخلاقية هي ايضاً في حالة تطور دائم ، غير ان هذا التطور وفق قـــانون العبور من الكمية الى الكيفية ، هو تطور ثوري يتحقـق بقفزات تاريخية ، كذلك فان المذاهب الاخلاقية تخضع لقوانين الديالكتيك الثلاثة،فالفضائل التي تعتبر فضائل في عصر معين يسوده اسلوب انتـــاج معين ، تصبح النقيض في عصر يليه يسوده اسلوب مغاير لسابقه من العصور وهكذا دواليك . . .

ي ـــ المادية التاريخية :

ان المادية التاريخية هي علم متفرع من المـــادية الديالكتيكية وهو يختص بشرح وايضاح قوانين الديالكتيك التي تحكم وتوجه تطور المجتمعـــات وترسم للتاريخ خط سيره . وترى المادية التـــاريخية في التاريخ عنصراً ابدي الحركة وهو ـــ اي التاريخ ـ قصة الانسان الملاحق لغـــاياته منذ فجر التاريخ حتى عصرنا هذا . كما وانها ترى بان انتصار البروليتـــاريا وتحقق الدولة الاشتراكية ومن ثم تجسد المجتمع الشيوعي امر محتوم يفرضه التطور والتحـولات الكيفية التي تطرأ على اساليب الانتاج وتبادله .

وهنا قد يقول قائل: إذا كانت المادية التاريخية تؤمن بان التناقض هو اساسها وجوهرها، وان هذا التناقض سيجعل تحقق سيادة البروليتاريا امراً أكيداً، فلماذا اذن تنشأ الاحزاب الشيوعية وتمارس نشاطاتها ؟!

وعلى هذا السؤال يجيب كارل ماركس في نقـده « لفلسفة الحق » « لهيغل » بأن النظرية تصبح قوة مادية حالما تنفذ إلى اذهان الجماهير وقلوبها ، لذلك يرى الماركسيون ان مهمتهم تنحصر في حشد وتحشيد الجماهير وراء الاهداف الثورية بغية الاسراع في تحقيق المجتمع الشيوعي ، وذلك لأن النظرية الماركسية لا ترى في التطور تتابعاً آلياً ، او نمواً رتيباً ، بل انمـــا ترى في التطور قفزات ثورية تاريخية يفرضها قانون العبور من الكمية الى الكيفية . ولقد دلت تجربة استيلاء الماركسيين على السلطة في الاتحاد السوفياتي ، ان لهذه القفزات الثورية التي وان جاءت غير مطابقة لحرفية قانون العبور من الكمية الى الكيفية ، اثرهـا البالغ في قطع الاشواط الطويلة نحو الاشتراكية ومن ثم تجسيد المجتمع الشيوعي .

ولكن حسب مفهوم قانون العبور من الكمية الى الكيفية يتضح لنـا تماماً ان الدولة والمجتمع يعـــبران من المجتمع ذي الدولة الرأسمالية الى المجتمع ذي الدولة الاشتراكية ، وان طريق الرأسمالية وبلوغ الرأسمالية ذروة انحلالها ، هو

المرحلة المحتومة لتحقق الانتقال والتحول الكيفيين ، وهذا ما يعني انه كان يتوجب على روسيا القيصرية التي كان يسودها نظام اقطاعي وعلى الصين التي لم تكن حالها تختلف كثيراً عن حال روسيا القيصرية ، ان تمرا في المجتمع ذي النظام الرأسمالي اولاً ، ومن ثم تقفزان قفزة ثورية الى المجتمع ذي الدولة الاشتراكية . قد يقول القارىء: ان قانون العبور من الكمية الى الكيفية ، يجب ان يكون نافذ المفعول في بلدان بلغت الذروة في التنظيم والانتاج الرأسماليين كالولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا والمانيا وبلجيكا وغيرها من البلدان الرأسمالية ، فلماذا إذن لم تتحول المجتمعات في البلدان الآنفة الذكر الى مجتمعات ذات انظمة اشتراكية ، وذلك طالما ان المادية الديالكتيكية التي تؤمن بالتناقض مولد الحركة والتطور ذي القفزات الثورية تقول بهذا ؟ !

ثم قد يذهب الآخرون الى القول متسائلين عن الاسباب التي تدعو الاتحاد السوفياتي للمناداة بفلسفة التعايش السلمي بين النظامين الرأسمالي « والاشتراكي » (اذا جاز لي استعمال كلمة اشتراكي وذلك لان النظام في الاتحاد السوفياتي يستهدف تحقيق الاشتراكية ولم يصبح اشتراكياً بعد) .

فهل من الممكن اذن قيام تعايش سلمي بين النظامين ، ونحن نرى المادية الديالكتيكية من فلسفية وتاريخية تقول بالاستحالة المطلقة لمثل هذا التعايش ، إذ انها ترى ان النظام الاشتراكي لا يمكن ان يقوم الا على انقاض النظام الرأسمالي ، الذي هو مرحلة سابقة ومحتومة للاشتراكية .

وهنا قد يقرر بعض القراء ان قانون العبور من الكمية الى الكيفية والذي هو حجر الزاوية في المادية الديالكتيكية هو قانون خاطىء بدليل ان الماركسية قد انتصرت في بلدين اقطاعيين هما الاتحاد السوفياتي والصين ، وفشلت في بلدان اخرى ، كان من المتوجب على النظرية الماركسية ان تنظر فيها ، وأعني بهذه البلدان ، بلداناً بلغ فيها التنظيم والانتاج الرأسماليان الذروة ؟ ان الشيوعيين يجيبون على هذه الاسئلة الخطيرة قائلين بان قانون العبور من الكمية الى الكيفية ليس بخاطىء أبداً ، بل إنما هو قانون حديدي كان ولا يزال احد

القوانين الهامة التي تنظم مسير التاريخ ومجراه .

وهم يوافقون القارىء على ان طبيعة النظام الذي كان يسود روسيا القيصرية والصين ، كانت اقطاعية في جوهرها ، وان الثورة البلشفية التي نشبت في هذين القطرين ، انما نشبت والرأسمالية لما تزل في الدور الجنيني في كل من الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية . وذلك لأن الصناعة التي هي أهم مظاهر الرأسمالية ، كانت حتى نشوب تينك الثورتين ، في مرحلة جد بدائية ، لهذا فان الاقطاعيين من كبار ملاك ونبلاء هم الذين كانوا يسيطرون على مقدرات الامور في البلدين المذكورين آنفاً ، وكان النظام الاقطاعي في الصين وروسيا القيصرية قد بلغ درجة من الانحلال ، اصبح بقاؤه معها امراً مستحيلاً . ولما لم يكن هناك آنذاك في روسيا القيصرية ، او الصين ، من طبقة برجوازية كبيرة ، او متوسطة ، وذات شأن في المجتمع ، وفي ميدانيه الاقتصادي والسياسي ، ولما كانت هناك آنذاك قوى رأسمالية متقدمة (Advanced) تحارب التصنيع في كل من الصين وروسيا القيصرية ، وتبذل كل جهد للحيلولة دون صيرورة هذين البلدين منافسين لها ، ولما كان وعي الجماهير في القرن العشرين اسرع استجابة للحركات الثورية ، لهذه الاسباب كلها انتصرت النظرية الماركسية في بلدين يسودهما نظام طابعه الاقطاع .

ولكن هل عبر هذان البلدان الى المجتمع الاشتراكي ؟ وهل ألغيت مرحلة الرأسمالية ؟ وهل طرأ اي تعديل على كيفية المجتمع ؟

ان الجواب على السؤال الاول هو ان البلدين المذكورين لم يعبرا الى المجتمع الاشتراكي بعد بل انهما في الطريق اليه وذلك بسبب تسلم البروليتاريا دفة الحكم في البلدين المذكورين .

أما الجواب على السؤال الثاني فهو ان مرحلة الرأسمالية لم تبلغ لان الغاءها يعارض قانون العبور من الكمية الى الكيفية ، كما وإن الغاءها يجعل تحقق المجتمع الاشتراكي امراً مستحيلاً ، اما ما حدث ويحدث في الاتحاد السوفياتي الآن فانما هو تجسيد للرأسمالية بكامل معانيها ، ولكن هذه الرأسمالية ليست برأسمالية

ذات صفة فردية بل انما هي رأسمالية ذات صفة جماعية ، انها رأسمالية الدولة التي تستهدف انماء القوى الانتاجية في الاتحاد السوفياتي وخلق صناعة قوية.

كلنا يعلم ان كارل ماركس يتهم الرأسماليين باللصوصية والسرقة ، ويقول بانهم يسرقون « فائض القيمة » الذي هو من حق العمال لينموا بواسطته ثرواتهم ، إذن فمن اهم مظاهر الرأسمالية هو ان « فائض القيمة » الذي هو حق مشروع للعمال يذهب الى غيرهم ، وهذا هو ما يحدث الآن تماماً في الاتحاد السوفياتي وفي الصين إلى حد ما . « ففائض القيمة » في الاتحاد السوفياتي لا يذهب الى العمال بل انما يذهب الى الدولة ، ولكن مع هذا يبقى النظام في الاتحاد السوفياتي ذا محتوى اشتراكي ، وذلك بسبب ان ما تأخذه الدولة من « فائض قيمة » الذي هو حق مشروع للعمال لا تبدده الدولة كما يبدده الرأسماليون ، بل انما تعيد توظيفه في المشروعات الانمائية بغية زيادة القوى الانتاجية في الاتحاد السوفياتي سعياً وراء تحقيق المجتمع الاشتراكي فالمجتمع الشيوعي . اننا لا شك نذكر الخلاف الذي حدث بين خروشوف ومالنكوف ، لقد كان هذا الخلاف يدور حول عما اذا كان يجب ان تعطى الافضلية في التوسع للصناعات الاستهلاكية المنتجة للسلع الاستهلاكية ذات الدورة الواحدة ، ام للصناعات الثقيلة المنتجة للسلع الرأسمالية ، لقد كان الخلاف بالأحرى يدور حول عما إذا كان قد آن للدولة أن تعيد « فائض القيمة » الى العمال ، بغية رفع المستوى المعاشي لهم ، وكان خروشوف يقول بضرورة متابعة اعطاء الافضلية للتوسع للصناعات الثقيلة ، أو بمعنى آخر بضرورة متابعة الدولة الاستيلاء على « فائض القيمة » . . . وانتصر خروشوف اخيراً بسبب ما يسود العالم من توتر ، وبسبب ممارسة الدول العظمى لسياسة القوة .

مما ورد يتضح لنا ان قانون العبور من الكمية الى الكيفية ليس بقانون خاطيء ، فالاتحاد السوفياتي الذي شيد على انقاض نظام اقطاعي قيصري لا يزال حتى الآن يمر في مرحلة النظام الرأسمالي ، غير أن هذا النظام يختلف كما قلت آنفاً عن الانظمة الرأسمالية الاخرى ، إذ انه نظام رأسمالية الدولة ذو الصفة الجماعية ، وليس بالنظام الرأسمالي الفردي ، لذلك فان عبور الاتحاد السوفياتي الى النظام الاشتراكي لن يكون عبوراً ثورويا او قفزة ثوروية بل

سيكون نهاية مرحلة أو دخولاً طبيعياً ، وبتعبير آخر ن، التبدل « الكيفي » الناشىء عن التطور « الكمي » لن يجيء بسبب سيطرة البروليتاريا على مقاليد الحكم في الاتحاد السوفياتي نتيجة لقفزة تاريخية ، بل انما سيجيء كخطوة عادية ومباشرة في طريق المجتمع السوفياتي الى تجسيد المجتمع الشيوعي ، أما في بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية وغيرها من البلدان التي بلغت مرتبة رفيعة في التنظيم والانتاج الرأسماليين ، واعني بهذه البلدان، البلدان المستعمرة منها، فـان الاستعمار وامتلاك المستعمرات قد أجل الى أمد تنفيذ قانون العبور من الكمية الى الكيفية . كما وان الدولة في البلدان المذكورة أخذت تقوم بتهذيب الرأسمالية وتأديبها عن طريق ضريبة الدخل ذات النسبة المرتفعة ، وتتدخل في توجيه الاقتصاد، غير ان هذه الاجراءات جميعاً ، لن تفلح في المدى الطويل ، وذلك بسبب التناقضات التي تكتنف كيان التنظيم الرأسمالي ، والتي تتجلى في الازمات الاقتصادية الدورية الممثلة بالكساد والبطالة ، حيث لا تجد هذه الازمات من وسيلة لانفراجها إلا في الحرب .

قلنا في مطلع بحثنا في المادية التاريخية أنها علم متفرع من المادية الديالكتيكية يختص بشرح وايضاح قوانين الديالكتيك التي تحكم وتوجه تطور المجتمعات ، وترسم للتاريخ خط سيره . ويفسر ماركس وانكلز المادية التاريخية في مقدمة « البيان الشيوعي » فيقولان :

« إن الانتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي الذي ينتج بالضرورة ، يؤلفان في كل عهد تاريخي أساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العهد .. وبالتالي، فكل التاريخ (منذ انحلال الملكية المشاعية الابتدائية)هو تاريخ نضال الطبقات،نضال بين طبقات مستثمِرة،وطبقات مستثمَرة،بين طبقات مسودة وطبقات سائدة،في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي. .وقد بلغ هذا النضال في الوقت الحاضر مرحلة اصبحت فيها الطبقة المستثمَرة المضطهدة (البروليتاريا) لا تستطيع ان تتحرر من الطبقة التي تستثمرها وتضطهدها (البرجوازية) دون أن تحرر في الوقت نفسه والى الابد المجتمع باسره من الاستثمار ومن الاضطهاد،ومن نضال الطبقات

الطبقات لها ويقول ماركس في كتابه « بؤس الفلسفة » ما يلي :

« إن العلاقات الاجتماعية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقوى المنتجة ، وعندما يحصل الناس على قوى منتجة جديدة يغيرون اسلوبهم في الانتاج ، وبتغييرهم اسلوب الانتاج ، أي بتغيير وسائل كسب معاشهم ، يغيرون كل علاقاتهم الاجتماعية ، فطاحونة الهواء تدلك على ان المجتمع هو مجتمع اقطاع ، والطاحونة البخارية ، تدلك على ان المجتمع هو مجتمع رأسمالي ، وهكذا يتضح لنا مما ورد ان التاريخ هو قصة تطور الانتاج ، وان السياسة هي على حد تعبير « سان سيمون » ليست سوى علم الانتاج ، وان الاقتصاد هو العامل المتفوق على السياسة ، وهو الذي يرسم لها خط سيرها .

ولنسع الآن الى تطبيق قوانين الديالكتيك الثلاثة (وحدة المتناقضات ، العبور من الكمية الى الكيفية ، نفي النفي) على واقع التطور التاريخي .

تقول الماركسية ، ان النظام الرأسمالى قد ألغى المتناقضات في المجتمع الاقطاعي ، فاصبح بذلك النقيض Anithese لنظام الاقطاع الذي هو القضية (These) ، غير ان هذا النظام (الرأسمالي) لم يوفق في التخلص من آثاره الاجتماعية ، فاكتنفه لذلك متناقضات اخرى ، وستؤدي هذه المتناقصات بالتالي الى هدم النظام الرأسمالي وانهياره وقيام النظام الاشتراكي فالشيوعي الذي يؤلف المركب Synthese والذي سينفي القضية والنقيض معاً .

واخيراً تقول الماركسية إن دولة البروليتاريا عندما تبلغ آخر مراحل تطور الاشتراكية تدخل في الشيوعية حيث تفنى الدولة وتزول . أما ظواهر هذه المرحلة فهي :

١ – زوال الطبقات زوالاً تاماً ، وزوال بقاياها وعوالقها وامتداداتها .

٢ – تطور هائل ونمو عظيم في القوى المنتجة .

٣ – تخطي تقسيم العمل الموزع بين اعمال مادية واعمال عقلية .

٤ – سعادة الانسان الحر في مجتمع حر » .

وقد وصف فريدريك انكلز فناء الدولة في المجتمع الشيوعي وصفاً دقيقاً في

كتابه المعروف باسم « ضد يوجين دو هرنغ » وذلك من الصفحة ٣٦٠-٣٦٢ ، وقد جاء في وصفه ما يلي :

« تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة وتحول وسائل الانتاج باديء ذي بدء ، الى ملكية الدولة ، ولكنها بذلك تقضي على نفسها بصفتها بروليتاريا ، تقضي على سائر الفوارق الطبيعية ، وسائر التضادات الطبقية ، وتقضي بالتالي على الدولة بصفتها دولة ... ولكن الدولة إذ تصير اخيراً الممثل الفعلي للمجتمع باسره فانها تصبح هي نفسها زائدة عديمة النفع ... ان الدولة لم تلغ انها تفنى . »

الصّهيونيّة

هل من فرق بين اليهودي والصهيوني — المسيحية ثورة على اليهودية — الحركة الصهيونية والاستعمار في العالم العربي



١ ـ أهناك فرق بين اليهودي والصهيوني ؟

تحاول الاوساط اليهودية ان تشيع وتذيع بأن هناك خلافاً جوهرياً بين بين اليهودي والصهيوني، والحق يقال أنه لا فرق مطلقاً بين اليهودي والصهيوني ، فالصهيوني هو ذاك الذي يطبق تعاليم التوراة ، ويسير وفقاً لما جاء في التلمود ، ولنقابل الآن بين تصريحات بعض المتطرفين من الصهيونيين امثال بن غوريون والارهابي مناحيم بيجن زعيم عصابة الارجوان وغيرهما،وبين ما جاء في التوراة:

قال بن غوريون في تصريح له في القدس :

« إن خريطة فلسطين الحالية هي خريطة الانتداب ، غير أن للشعب اليهودي خريطة اخرى يجب على شبابنا ورجالنا ان يحققوها،وهي ما نصت عليه التوراة ما بين دجلة والفرات ».

وقال « إريه ألتمان » في خطاب له القاه في البرلمان اليهودي بتاريخ ١٧ آذار ١٩٥٢ ما يلي :

« من واجبنا ان نفهم العالم بصدق ان غاية اسرائيل في حشدها اليهود من كل قطر وجمعهم فيها بسرعة وكثافة ، هي ان نخلق لنا حدوداً ما بين العراق والسويس » .

وذكر « بنتويتش » الزعيم الصهيوني في كتابه « فلسطين واليهود » ما يلي :

« لا حاجة ان تكون فلسطين المستقبل محدودة بحدودها التاريخية ،ففي امكان المدنية اليهودية الامتداد الى جميع البلاد التي وُعد بها الشعب المختار في التوراة

وهي من البحر المتوسط حتى الفرات ومن لبنان حتى النيل .»

والقى الارهابي المعروف مناحيم بيجن في شهر كانون الاول عام ١٩٤٩ خطاباً في نيويورك جاء فيه :

« يجب ان نذكر كلنا ان القتال لم ينته بعد، واننا سنواصل الحرب باساليب جديدة، واسلحة جديدة حتى يتم تحرير اسرائيل بكاملها، وتسقط البلاد العربية الباقية في ايدينا ، ويعود جميع افراد شعبنا الى الوطن الموعود ، وما على العرب « المتوحشين » إلا ان يرجعوا الى الصحراء التي جاءوا منها، فهم لا يستحقون الحياة في غيرها ».

واخيراً كما لا شك ان يعرف القارىء الكريم ان العبارة التالية قد حفرت فوق باب البرلمان اليهودي: « حدودك يا اسرائيل من الفرات إلى النيل » والآن لنرَ ما تقوله التوراة :

جاء في الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين وفي العدد ١٨ ـ ٢١ ما يلي:

« وفي ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً : لنسلكَ اعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير (نهر الفرات) .

وجاء في الاصحاح الاول من سفر يشوع عدد ١ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ما يلي :

« إن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً : «كل موضع تدوسه بطون اقدامكم لكم اعطيته ، كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع ارض الحثيين، والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس تكون تخومكم».

من الامثلة الواردة اعلاه يتضح ان الصهيوني هو اليهودي الذي يطبق تعاليم دينه، وانه لمن المغالطة ان نفرق بين اليهودي والصهيوني فيما يتعلق بالاهداف التوسعية الحالية لاسرائيل، طالما ان التوراة ذاتها تنص او بالاحرى تطالب بقيام اليهود بمثل هذا التوسع .

والآن قد يتساءل القارىء ويقول إن الصهيوني كما تبين لنا في فلسطين نذل غادر همجي الطبع بربري عندما يكون قوياً لا يرحم طفلاً ولا يبقي على كهل او امرأة؛ ومذبحة دير ياسين وقبية وغيرهما لتشهد بالجرائم البربرية التي اقترفها

الصهيونيون ، فهل اليهودي هو ايضاً كذلك ؟

وانا اترك للتوراة ان تجيب على هذا السؤال .

فلقد ورد في سفر التثنية وفي الاصحاح العشرين والعدد ١٠ ـ ٢٣ ما يلي :

« حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح ، فان اجابتك إلى الى الصلح وفتحت لك فكل الشعوب الموجودة فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك وعملت معك حرباً فحاصرها واذا دفعها الرب إلهك الى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها ، فتغنمها لنفسك ، وتأ كل غنيمة اعدائك التي اعطاك الرب الهك ... هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي من مدن هؤلاء الامم ههنا واما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب ليست إلهك نصيبك فلا تستبق منها نسمة واحدة .

وعندما نشهد جموع اخواننا اللاجئين العرب والعائدين قريباً الى بلادهم لنذكر ما ورد في سفر « التثنية » وفي الاصحاح الثالث والثلاثين والعدد ٥٥ ـ ٥٦ .

« ان لم تطردوا سكان الارض من امامكم يكون الذين تستبقون منهم اشواكاً في اعينكم ، ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الارض التي انتم ساكنون فيها » .

وجاء في التلمود ما يلي :

« اقتل الصالح من غير الاسرائيليين ، اذا وقع احد الوثنيين في حفرة يلزمك ان تسدها بحجر ! »

ويقول التلمود ايضا :

« من العدل ان يقتل اليهودي كل كافر ، لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً » فهل نستطيع بعد الامثلة التي اوردتها وهي غيض من فيض ان نفرق بين اليهودي والصهيوني ، والحق ان الانسان لا يستطيع ان يصدق عينيه وهو يقرأ مذهولاً امثال هذه الفقرات التي تحض على العدوان واقتراف الآثام والجرائم

ضد الانسانية، ومن ثم يعتبر اليهودية ديناً او بالاحرى احـــد الاديان الثلاثة الكبرى ، فاليهودية كما ارى هي دستور ومنهاج للاستعباد والعدوان، واليهودي كما ثبت تاريخياً وخاصة في فلسطين انه غير قادر على اعطاء الحرية للآخرين وعاجز عن تلقيها والاستجابة الى روحها السمحة الانسانية ، وذلك بسبب أن دينه يحضه على كراهية كل انسان غير يهودي ، واحتقـار كل أمة غير الامة اليهودية. لهذا يتوجب علينا—ونحن نمر في مرحلة تاريخية خطرة من مراحل تبلورنا القومي، ونجـابه في الوقت نفسه خطر شعب مغتصب يحرضه دينه ، نعم دينه على العدوان – ألا نفرق بين اليهودي والصهيوني ، إذ أن الصهيوني هو يهودي « متـدين » يطبق تعاليم وشرائع اغرب دين عرفه الضمير الانساني .

ب ـ لماذا اضطهد ويضطهد وسيضطهد اليهود ؟

لم يعرف شعب من الشعوب او امة من الامم الاضطهادات قدر ما عرفهـا الشعب اليهودي. فتاريخ اليهود هو تاريخ ثورة الانسانية على اليهودية ، فعندمـا تعتبر امة من الأمم أنها هي شعب الله المختار ، وعندما يقرر « التلمود » قائلاً :

« اليهود أحب الى الله من الملائكة ، وهم من عنصر الله كالولد من عنصر ابيه فمن يصفع اليهودي كمن يصفع الله ».

أو عندما يقول « تلمود اورشليم » في الصفحة ٩٤ منه :

« ان النطفة المخلوقة منها باقي الشعوب الخارجة عن الدين اليهودي هي نطفة حصان » .

او عندما يقول « التلمود » :

« لو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الارض ، ولمـا خلقت الامطار والشمس، ولما امكن باقي المخلوقات ان تعيش، والفرق بين درجة الانسان والحيوان

هو بقدر الفرق بين اليهودي وباقي الاميين » .

او عندما يقول الرابي (المعلم) موسى بن نعمان والحاخـــام « ريشا » في تفسير العبارة الواردة في سفر الخروج والقائلة :

« ان الاعياد المقدسة لم تجعل للاجانب والكلاب » اقول عندما يقول هذان القطبان الدينيان في تفسيرها :

« إن الكلب افضل من الاجنبي لأنه مصرح لليهودي في الاعيـاد ان يطعم الكلب، وليس له ان يطعم الاجنبي او يعطيه لحماً بل يعطيه للكلب».

أو عندما يقول الرابي « مناحم » :

« ايها اليهود انكم من بني البشر لان ارواحكم مصدرهـا روح الله ، واما باقي الأمم فليست كذلك لان ارواحهم مصدرها الروح النجسة » .

او عندما يقول الحاخام « أريل » :

« ان الخارجين عن دين اليهود خنازير نجسة ، واذا كان الاجنبي قد خلق على هيئة انسان، فما ذلك إلا ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لاجلهم» .

او عندما تقول التوراة ، وهي بمثابة الانجيل عند اخواننا المسيحيين والقرآن عندنا معشر المسلمين ، في الاصحاح السابع من سفر التثنية عدد ٢١ — ٢٤ :

« لا ترهب وجوههم لان الرب الهك في وسطك اله عظيم ومخوف ، ولكن الرب الهك يطرد الشعوب من امامك قليلاً قليلاً لا تستطيع ان تفنيهم سريعاً لئلا تكثر عليك وحوش البرية ، ويدفع الرب إلهك امامك ، ويوقع بهم اضطراباً عظيماً حتى يفنوا ويدفع ملوكهم الى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء ».

عندما يطلع الانسان على كل هذه الامور المفزعـة الرهيبة الواردة في صلب الدين اليهودي لا يسأل عندئذٍ لماذا اضطهد ويضطهد اليهود ؟ انما يتساءل عاجباً مذهولاً لماذا لا يزال حتى اليوم على ظهر هذا الكوكب يهودي ويهودية ؟ ! إذ ان الديانة اليهودية تتنافى وابسط المبادىء الانسانية وقواعدها . وقد خلقت الديانة اليهودية سيكولوجية خاصة بالفرد اليهودي، وهذه السيكولوجية تجعله ابداً فرداً

انعزالياً متعالياً على بقية الامم والشعوب ، وهو ان احتك او اختلـط بغيره من الافراد غير اليهود فانما يقوم بمثل هذا الامر بغية استثمار واستغلال ذاك الفرد الذي خلقه الله على حد تعبير الحاخام « آريل » على شكل انسان كي يكون لائقاً لخدمة اليهودي . ففي اليهودية عنصر يناهض الاجتماع والمجتمع الانساني ، وهذا العنصر هو الذي دفع سابقـاً ويدفع حاضراً باليهود الى محاولة هدم كل مذهب اجتماعي او دين او نظام . فاليهود كانوا اول من نظم الحملات لهدم الدين الاسلامي . ويقول الاستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه « تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة » وفي الصفحة ٧١ منه ما يلي :

« ويرى بعض المفكرين المسلمين هذا الرأي فيما يتعلق بدعوات الهدم الاسلامية ، ولا سيما دعوة عبدالله بن ميمون التي اسفرت كما رأينـا عن اعظم حركات هدامة عرفها الاسلام ، فيقولون ان اليهود هم الذين نظموا مقـاومة الاسلام منذ ظهوره ، وحشدوا الدعاة لافساد تعاليمه ، وان ميمون بن ديصان وولده عبدالله كانا يعملان على بث مبادئها السرية في الالحـاد والهدم بتحريض وتعضيد من الدعاة اليهود ».

كما وان اليهود هم الذين كانوا وراء الجمعيات التي استهدفت هـدم الدعوة المسيحية كجمعية الصليب الوردي ، وجمعية عبادة الشيطان والسحر الاسود ، وجمعية الالبيين(Albigeness) ، وخطة هذه الجماعة تستهدف بث دعوة فحواها محاربة مبادىء الاخلاق والسلطة بالانضواء تحت لواء الشيطان ، والشيطـان في تعـاليم هؤلاء هو خصم الله الذي يسيطر على جميع النظم الاجتماعية التي ترهقهم وتعصف بحرياتهم ، وكان من شعائر هؤلاء ان يعقدوا اجتماعات يغرقون فيهـا بالفجور والخلاعة ، ويشتمون المسيح ويبصقون على صليبه . كما وأنه كان لليهود الباع الطولى في السحر والشعوذة وقضايا السموم التي سادت اوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ويقول فولتير في ذلك :

« كان اليهود هم الذين يُلتجأ اليهم عادة في تأدية الشؤون السحرية ، وهذا الوهم القديم يرجع الى اسرار «الكابالا» التي يزعم اليهود انهم وحدهم يملكون اسرارها ،

وكانت كاترين دي مديتشي والمارشال دانكر وكثيرون غيرهما يستخدمون اليهود من اجل هذا الامتياز ».

وقد لعبت الجمعية اليهودية المعروفة باسم « الكابالا » دوراً كبيراً في تغذية الحركات الهدامة في اوروبا، وقد اسس هذه الجمعية اليهودي المعروف باسم « اسحاق ابن سلمون لورا » وكانت هذه الجمعية تتعامل بالسحر والطلاسم وتضفي عليها نوعاً من الشعوذة الصوفية، وكانت تنتظم جمهرة غفيرة من علماء التلمود، كما وان « تيوفراستوس فون هوهنهايم » المعروف باسم « بارسيلسوس » الذي يعتبر الاب الروحي لجمعية « الصليب الوردي » قد استقى تعاليمه من جمعية « الكابالا » وكان برسيليوس هذا يذكر مجهوداته على تركيب « الاكسير » الذي كان امنية العصر آنذاك . وقد وصف فولتير في قصته المشهورة « هنرياد » شعائر الجمعيات السرية التي تفرعت عن جمعية « الكابالا » اليهودية في قطع شعرية بليغة منها :

« في شبح الليل تحت قبو مظلم
يسود الكون اجتماعهم الدنس
وعلى ضوء مصباح سحري شاحب
بقيام هيكل دنس فوق قبر
وقد نظمت السيوف فوق الجدران الحالكة
تغمس أطرافها في اوعية من الدم
هي آنية منذرة لخفائهم المرعب
وراهب هذا المعبد احد اولئك اليهود
الذين يفرون من اضطهاد الارض والناس كلهم
يجرون بؤسهم العميق من جدار الى جدار
وقد ملأوا منذ بعيد كل الأمم
بطائفة عتيقة من الاساطير والخرافات ... »

هذه هي بعض « مآثر » اليهود و« مفاخر اليهودية » التي اعلنت الحرب منذ نشأتها على جميع امم الارض وشعوبها ، وسارت في جميع خطواتها مدفوعة

بروح شريرة تستهدف تحطيم المجتمع الانساني وتدمير القيم الانسانية العليا، لذلك كان لزاماً على الشعوب ان تستيقظ في فترات من تاريخهـا لتؤدب هذه الشرذمة من اللا انسانيين ، وبدلاً من ان يرعوي اليهود عن غيهم ويتخـلوا عن اخلاقهم الانعزالية العدوانية كانوا يتمسكون بمسلكم العدائي والتخريبي ضد الشعوب والامم، وقد اوجدت الاضطهادات المتوالية التي نزلت باليهود شعوراً « سادئياً» في قرارة نفوسهم، شعور من يجد اللذة في الالم، ولكن في ألم غيره من الناس. كما وأنمت فيهم نوازع النقمة والانتقام من كل من على ظهر هذا الكوكب من أمم وشعوب ، وشحذت فيهم الخبث والدهاء والتلون ، وجعلت بالتالي تعاونهم او تعايشهم مع الأمم الاخرى امراً مستحيلاً، فاليهودي لا يستطيع ان يعيش الا مضطهِداً او مضطهَداً ، وسر ذلك كامن في دينه وفي تربيته الاجتماعية التي نظمتها مبادىء منحرفة لا انسانية ، لذلك فانه لا خلاص للعالم طالما ان لليهود واليهودية فيه أثراً ونفوذاً .

ج ــ المسيحية ثورة على اليهودية

إن المسيحية تمثل في جوهرهـــا يقظة الضمير في الفرد الانسان وثورته على المادية اليهودية في عدوانها وانعزاليتها. فالمسيحية، كما أرى، لا تمثل ابداً تطوراً في اليهودية كما يقول بعض اللاهوتيين من اخواننا المسيحيين بل انها تمثل ثورة كاملة على مفاهيمها. لذلك فانه لا يوجد اي ارتبـاط بين العهد الجديد والعهد القديم في الكتاب المقدس. فاذا تمعنا في العهد القديم وجدناانه خال تماماً من الروح الانسانية التي نراها بارزة واضحة في الأناجيل الأربعة وفي رسائل بولس الرسول وغيره من الرسل ، كما واننا اذا قابلنا بين النظم الاجتماعية المسيحية والنظم الاجتماعية اليهودية يتضح لنا الفارق الجوهري بينهما : فاليهودية تقوم على العدوان والعنف

واحتقار الامم والشعوب، بينما تقوم المسيحية على التسامح والمحبة والمساواة بين الامم . واليهودية تلتقي بالمادية الرومانية ، فتقسم الامم الى فئتين « شعب الله المختار » الذي هو الشعب اليهودي، والوثنيين . بينما ترى المسيحية ان الشعوب واحدة امـام الله عز وجل . ولقد كان للمسيحية الفضل الاكبر في هدم الامبراطورية الرومانية المنحلة ، اذ ان دعوتهـا الى المساواة الاجتماعية بين الافراد وانتهاجها في بادىء امرها نهجاً شيوعياً في طريقة معيشة الجماعات المسيحية، حيث كان يعيش النبيل والعبد ، والفقير والغني معاً قد هدم الفوارق الطبقية بين الطبقات ، هذه الفوارق التي كانت تشكل القاعدة الرئيسية للنظام الاجتماعي الروماني . أضف الى ذلك ان الديانة المسيحية ديانة مفتوحة الأبواب لجميع الأمم والشعوب ، في حين ان اليهودية ديانة مغلقة بحيث لا يمكن للمرء ان يصبح يهودياً إلا بالولادة . وقد حاولت اليهودية في بادىء أمرهـا ان تسيطر على المسيحية، وتخضعها ، اذ ان بطرس الرسول كان يرى ان لا يُسمح ابداً لغير اليهودي ان يصبح مسيحياً، وان المسيح إنما جاء رسولاً الى الشعب اليهودي فقط ، غير ان بولس الرسول الذي يعتبر الشخصيـة المسيحية الاولى بعد السيد المسيح عارض هذا الرأي، وحال دون تطبيقه معتمداً في ذلك على ما ورد في انجيل يوحنا الاصحاح الثالث والعدد ١٦ — ١٨ والقائل :

« لأنه هكذا أحب الله العـالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية ، لانه لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العـالم ، الذي يؤمن به لا يدان، والذي لا يؤمن به قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد » . فـالله إذن في المسيحيـة هو إله للجميع بينما هو في اليهودية إله لبني اسرائيل فقط . كما وحـاول بطرس الرسول ان يفرض الختان على جميع من يدخل في المسيحية، غير ان بولس الرسول وقف ضد بطرس الرسول في هذا الموضوع ايضاً محاولاً بذلك ان يقطع كل صلة تربط المسيحية باليهودية . أضف الى ذلك ان اليهودية تدعو الى الكسب وجني المرابح المادية، وتبيح سرقة الاجانب والاغراب، وبهذا يقول الرابي (المعلم) راليو :

« سلط الله اليهودي على أموال باقي الامم ودمائهم » ويفسر « التلمود » هذه العبارة بما يلي :

« اذا سرق اولاد نوح – اي غير اليهود – شيئاً ولو كانت قيمته طفيفة جداً يستحقون الموت لأنهم قد خالفوا الوصايا التي اعطاها الله لهم ، اما اليهود فصرح لهم ان يضروا الأمي لأنه جاء في الوصايا لا تسرق مال القريب ! وما دام موسى لم يكتب في الوصية لا تسرق مال الأمي فان سلب ماله لا يخالف الوصايا ».

على حين ان المسيحية دعوة مثالية تتنكر للمادية وللمال تنكراً شديداً، وترى ان الحياة على الارض هي مرحلة إعداد وانتقال الى الحياة الثانية في السماء، وبذلك يقول المسيح جهاراً في انجيل متى الاصحاح الثالث عشر عدد ٤٤ – ٤٦ « ايضاً يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفى في حقل وجده انسان فاخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل ، ايضاً يشبه ملكوت السموات تاجراً يطلب لآلىء حسنة، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها ».

وايضاً يقول المسيح في الانجيل ذاته، وفي الاصحاح التاسع عشر مخاطباً الشاب الذي جاء يسأله عما يفعل ليدخل ملكوت السموات فيجيبه المسيح قائلاً (عدد ٢١) :

« إن اردت ان تكون كاملاً فاذهب وبع املاكك واعطه الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعال واتبعني ! »

وتبتدىء ثورة المسيحية على اليهودية في الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى، وذلك عندما يعنف المسيح الكتبة والفريسيين قائلاً : (عدد ١٦، ١٧، ١٨).

« ويل لكم ايها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء ، ومن حلف بذهب الهيكل يلتزم ، ايها الجهال العميان ايما اعظم : الذهب ام الهيكل الذي يقدس الذهب؟ ومن حلف بالمذبح فليس بشيء ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم ».

من كلام السيد المسيح تبدو ان النفعية هي التي توجـــه اليهودية وتسيطر عليها : فالذهب كما يرى اليهود هو الذي يقدس الهيكل ، والقربان الموجود على المذبح هو ذو القيمة الحقيقية في نظر اليهود لا المذبح .

وجاءت المسيحية لتهدم ايضاً الفوارق بين الامم والشعوب وتقول بانه ليس هناك شعوب طاهرة واخرى نجسة ، بل ان هناك بني الانسان فقط ؛ ولقد بشر المسيح بهذه العقيدة الانسانية قولاً وعملاً . فلقد كان اليهود يعتبرون السامريين الساكنين في لواء السامرة من اعمال فلسطين قوماً اجانب « انجـــاساً » لا تجوز مخالطتهم ، ولا يجوز ابداً أن يأكل الانسان معهم. كما وان المرء حسب ايمان اليهودية يتدنس اذا ما شرب من آنيتهم ، غير أن المسيح خـــالطهم واهتدى الكثيرون منهم الى المسيحية . فلقد ورد في الاصحاح الرابع من انجيل يوحنـا عدد ٦ — ١٠ ما يلي :

« وكانت هناك بئر يعقوب،فاذا كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر، وكان نحو الساعة السادسة فجاءت امرأة لتستقي ماء فقال لها يسوع: اعطيني لأشرب ! لان تلاميذه كانوا قد مضوا الى المدينة « مدينة السامريين » ليبتاعوا طعاماً ، فقالت له المرأة السامرية : كيف تطلب مني لتشرب ؟! وانت يهودي وانا سامرية !! «لان اليهود لا يعاملون السامريين ».

وورد في الاصحاح نفسه ومن الانجيل نفسه ومن العدد ٣٩ — ٤١ ما يلي :

« فآمن به من تلك المدينة كثيرون من السامريين بسبب كلام المرأة الـتي كانت تشهد أنه قال لي كل ما فعلت ، فلمـا جاء اليه السامريون سألوه ان يمكث عندهم، فمكث هناك يومين فآمن به اكثر جداً بسبب كلامه».

وينص التلمود (سنهدين ٢٢ ، ٥٨) على ما يلي :

إذا ضرب امي امرائيليـــاً فالامي يستحق الموت ، اما المسيحية فجاءت لتقول عكس ذلك تماماً إذ ورد في انجيل لوقا الاصحـاح السادس عدد ٢٧ — ٢٩ ما يلي :

« لكني اقول لكم ايها السامعون أحبوا اعـداءكم ، أحسنوا الى مبغضيكم !

باركوا لاعنيكم، وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم، من ضربك على خدك فأعرض له الآخر ايضاً، ومن اخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك ايضاً ».

ويتضح مما ورد أعلاه ان المهاتمـــا غاندي قد استوحى فلسفته الخاصة بالمقاومة السلبية « Passive Resistance » من الفقرة الآنفة الذكر . لذلك فان الكثيرين من رجال اللاهوت المسيحي يعتبرون المهاتما غاندي في جوهره مسيحياً صادقاً في مسيحيته .

ومن الغريب ان اليهودية التي لا تعرف في حياتهـــا سوى الخداع والدجل والتضليل قد دفعت باحـــد كبار كتاب القصة فيها المدعو « شالوم آش » الى وضع قصتين طويلتين الاولى بعنوان « الناصري »، وتستهدف هـــذه القصة تبرئة الشعب اليهودي من جريمة صلب المسيح وحصرها برئيس الكهنة « حنان » وعائلته ، ثم تغالط التـــاريخ لتقول بان « بيلاطس البنطي » استاء من تدخل زوجته في امر السيد المسيح ، لذلك استجاب الى رغبة زمرة الشقي « برباس » فوافق على اعدامه ؟!

اما القصة الثانية فهي بعنوان« الرسول» وهدف الكاتب من وراء وضعها الى تبيان الصلة التي تربط المسيحية باليهودية ، واظهار الخدمات التي ادتهـــا اليهودية للمسيحية في مراحلها الاولى ، اذ يظهر « شالوم آش » ان اليهودية وضعت جميع معابدها تحت تصرف تلاميذ المسيح ليبشروا من على منابرها بالعقيدة المسيحية .

د ـ اليهودية في خدمة رأس المال

لا يسعني هنا الا ان أبدأ بحثي هذا بقول اليهودي الثائر على اليهودية والنفعية والاستغلال: « كارل ماركس » هذا القول الوارد في الصفحة ٥٥ من كتابه المسألة اليهودية الذي نشرته مكتبة المعـــارف في بيروت ، وترجمه محمد عيتاني :

يقول ماركس :

« يجب أن لا نبحث عن سر اليهودي في دينه ، بل فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي . ما هو الاساس الدنيوي لليهودية ؟ المصلحة العملية والمنفعة الشخصية . إذن فالعهد الحاضر بتحرره من المتاجرة والمال، وبالتالي من اليهودية الواقعية والعملية انما يحرر نفسه ايضاً .

والتنظيم الاجتماعي الذي يلغي الشروط الضرورية للمتاجرة، وبالتالي يلغي امكانية المتاجرة، سوف يجعل وجود اليهودي مستحيلاً، والضمير الديني لليهودي سوف يتلاشى مثل بخار تافه في جو المجتمع الحقيقي ».

ويستطرد كارل ماركس فيقول في الصفحة ٥٦ من كتابه المذكور :

«ان تحرير اليهود فعلاً في معناه الاخير يكون في تحرير الانسانية من اليهودية. لقد تحرر اليهودي فعلاً ولكن على الطريقة اليهودية ، فاليهودي مثلاً الذي لا يحسب له حساب في فيينا هو الذي يقرر بقوته المالية مصير المملكة كلها . وأن اليهودي الذى قد يكون في أصغر الدول الالمانية محروماً من الحقوق هو الذي يقرر مصير اوروبا ».

ويسترسل كارل ماركس فيتساءل عن إله اليهود ويجيب على هذا السؤال في الصفحة ٥٩ من الكتاب ذاته فيقول :

« المال هو إله إسرائيل المطاع ، ويعتقد اليهود أنه لا ينبغي معه لاي إله أن يعيش . إن المال يخفض جميع آلهة البشر ويجعلهم سلعاً . السفتجة هذا هو الاله الحقيقي لليهود ».

لا أعتقد ان هناك تحليلاً مشابهاً في واقعيته وجرأته لليهود كالتحليل الذي اورده كارل ماركس أعلاه . فعقب ان قضى الرومان على آخر انتفاضة ثورية قام بها اليهود في فلسطين عام ١٣٢ بعد المسيح بزعامة الثائر اليهودي «بارخوشبا» هدموا القدس واداروا المحاريث في اطلالها ومن ثم جعلوها مستعمرة رومانية دعوها « ايليا كابيتلونا » وسبوا من تبقى من اليهود وساروا بهم يستعرضونهم اسرى في شوارع روما، ثم توزع اليهود على مختلف بقاع الارض .

منذ ذاك الحين حتى قيام جمعية « عشاق صهيون » ومن ثم تأسيس « تيودور هرتس » للحركة الصهيونية نهج اليهود في مختلف بقاع الارض نهجاً واضحاً يتمثل في استخدام جميع الظروف السياسية والاقتصاديه والاجتماعية في خدمة رأس المال اليهودي وتثميره، وتناسى اليهود تناسياً مطلقاً كل قضية تتعلق بالقومية اليهودية وبانشاء وطن قومي او تأسيس دولة يهودية، وسعوا سعياً حثيثاً لامتلاك السيطرة على اكبر قدر ممكن من رأس المال العامل في العالم . فاحتكر اليهود في القرون الوسطى « الربا » وكانوا يتناولون الفوائد الباهظة على ما يقرضونه من اموال، والرواية التمثيلية التي وضعها شكسبير والمعروفة باسم «تاجر البندقية» لخير دليل على ما كان لليهود من اثر رهيب مخيف في حقل « الربا » وما فطرت عليه نفس اليهودي من وسائل شريرة بغية الحصول على المال . واليهود كانوا هم الذين يمدون امراء الاقطاع بالمال لقاء فوائد باهظة محاولين بذلك استخدام ما لهؤلاء من سلطة ونفوذ من اجل تثمير اموالهم وتنمية مواردهم .

وجاءت الثورة الصناعية في القرن السابع عشر، وخرجت المصارف الى الوجود وبدأت المؤسسات المصرفية تصبح عاملاً حيوياً في حقل الاقتصاد الوطني، وأخذ المال لا السلطة يتربع على عرش السلطان والنفوذ ، فاتجه اليهود برؤوس اموالهم الى المصارف والمؤسسات المصرفية الكبرى، وتمكنوا بذلك من جعل رأس المال اليهودي عاملاً خطير الشأن في الاقتصاد العالمي وهذا مما نشر النفوذ اليهودي في مختلف الدول وجعل لليهودية العالمية مكاناً مرموقاً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فبرزت الى حيز الوجود بيوتات مالية يهودية ضخمة ذات نفوذ هائل جبار مدمر وأصبح اليهودي كرأس المال تماماً لا قومية له او دين او وطن ، بل انما له مذهب واحد هو الاستغلال وتكديس الارباح . ولهذا لاقت اول دعوة لتأسيس دولة اسرائيل في القرن السادس عشر فشلاً ذريعاً، وقد قام بهذه الدعوة يهودي عاش في ذاك القرن ويدعى «دافيد روبيني» كما وان النداء الذي وجهه نابليون في ٢٠ نيسان عام ١٨٩٩ هذا النداء الذي طلب فيه نابليون من اليهود مساعدتهم المالية لقاء مساعدته لهم في تأسيس دولة في

فلسطين لم يلق من الاوساط اليهودية حماساً، او قبولاً بل تابع اليهود النهج السالف الذكر وابقوا رأس المال وتثميره الهدف الاول لهم في الحياة، واتخذوا من نابليون موقف الحـــذر غير المتهور خشية ان تتضرر مصالحهم في بريطانيا وفيما وراء البحار، وتحاشوا الدخول في اية مغامرة سياسية قد تعرض رأس المـال اليهودي العالمي الى خطر مؤكد او محتمل . وسبب اتخـاذ اليهود لهذا الموقف وتناسيهم للتوراة التي تحضهم على الرجوع الى فلسطـين او بالاحرى إلى مملكتهم المزعومة الممتدة من النيل الى الفرات، لا يعود ابداً الى عدم رغبتهم في التنكر لما جاء في المراثي: « فلتنسني يميني ان نسيتـك يا اورشليم ! » وانما يعود اولاً واخيراً الى كون اليهود قد ادركوا آنذاك ممـا لمسوه وعرفوه في معـاملاتهم المالية انه بامكانهم ان يسيطروا على العالم بمجموع اقطاره ودوله عن طريق رؤوس اموالهم، لذلك ذهب بعض مفكري اليهود ، بغية اشاعة الطمأنينة لرأس المال اليهودي وفتح مجالات جديدة امامه ، اقول ذهب بعض هؤلاء المفكرين الى حد المطالبة بحذف الترانيم القائلة بمجيء المسيح المنتظر من صلواتهم وتراتيلهم، وكان على رأس هؤلاء المفكرين الفيلسوف اليهودي «موسى مندلسون » « وصموئيل هولدهايم » « واسحاق جيجر » وقـــال هؤلاء ان تشتت اليهود تحت كل نجم هي ضرورة وحكمة إلهية اراد الله من ورائهـــا ان يختلط اليهود بمختلف الشعوب ليرشدوهم الى وحدة الكائن الاعلى الذي هو إله اسرائيل. ولا شك ان القارىء ليدرك مدى التناقض الذي يكتنف هذه الاجتهادات الدينيـة والدين اليهودي بالذات الذي هو دين مغلق، غير اننا ندرك ان هذه الاجتهادات الدينية لا ترمي الى ارشاد الشعوب ليؤمنوا باله اسرائيل ، وانما ترمي اولاً واخـيراً الى تمكين شعب اسرائيل من استغـــلال الشعوب والسيطرة على رؤوس الاموال العاملة في العالم .

وقام ايضاً بعض الزعماء السيـــاسيين من اليهود ونادوا بأنه لا يجوز في كل الاحوال ان يطالب اليهود او يسعوا الى تأسيس دولة يهودية، وأن على اليهود ان يختلطوا بسكان البلاد التي يعيشون فيهـــا وان يندمجوا فيهم ، وان اليهودية دين

لا قومية، وان اي شذوذ عن هذه القواعد سيجعل المسيحيين يرتابون بولاء اليهود للدولة» وهذا ما سيعرض الجاليات والطوائف اليهودية الى كوارث محققة تنزل بهم وباموالهم.

وفي نهاية القرن التاسع عشر عندما اسست جمعية «عشاق صهيون» وأعقبها تأسيس جمعية «كاديناح» التي اوجدهـا صحفي يهودي يدعى «بيرنوم» و«بيرنوم» هذا كان اول من ابتكر كلمـة «صهيونية»، وقف قسم كبير من اليهود معارضين دعوات هاتين الجمعيتين بتأسيس دولة يهودية في فلسطين، وكان اشد المعارضين لهذه الدعوة المتمولون من اليهود الذين دفعوا باحد اليهود الى تأسيس جمعية تناهض هاتين الجمعيتين وتعرف بجمعية «ابنـاء موسى» وقد قاومت هذه الجمعية دعوة الجمعيتين المذكورتين بضراوة، ونادت بأن الصهيونية حركة فكرية روحية وليست بحركة مادية.

وحب المال رغبة غريزية جامحة في نفس اليهودي، فلقد سبق للسيد المسيح ان حمل على اليهود في هذا الشأن حملة شعواء عنيفة، إذ ورد في الاصحاح الحادي عشر العدد ٤٢ — ٤٣ من انجيل لوقا ما نصه :

«ولكن ويل لكم ايها الفريسيون لانكم تعشّرون النعنع والذّاب وكل بقل، وتتجاوزون عن الحق ومحبة الله».

كما وأننا نذكر ولا شك ما فعله السيد المسيح عندمـا دخل الهيكل، هذا الهيكل الذي يعتـبر الرمز القومي الديني لليهود فوجد باحاته تغص بالصيارفة وبالباعة فأقدم على طرد هؤلاء قائلاً :

«مكتوب ان بيتي بيت الصلاة وانتم جعلتموه مغارة لصوص» (وهذا القول وارد في انجيل لوقا الاصحاح التاسع عشر العدد ٤٦).

ويذهب حب المال باليهودي إلى حد إباحة السرقة ديناً، نعم إباحة السرقة والغش ديناً، ولقد ورد بذلك تحليل واضح في التلمود:

«إن الرابي (المعلم) صموئيل كان رأيه أن سرقة الاجانب مبـاحة، وقد اشترى هو نفسه آنية من الذهب كان يظنها الاجني نحـاساً، ودفع ثمنها اربعة

دراهم فقط وهو ثمن بخس وسرق درهماً آخر من البائع ».

ونحن نستطيع ان نتفهم بسهولة ويسر الاسباب التي تجعل اليهودي يرى له في المال إلهاً واحداً ووحيداً على حد تعبير كارل ماركس، فالدين اليهودي الذي جعل من العدوان العنصر الاساسي والموجه للقومية اليهودية ، قد جعل اليهودي بالتالي فرائس للاضطهادات وقطبــاً جاذباً لشتى الكوارث والمصائب، واخيراً شعباً محتقراً لدى الشعوب والأمم الأخرى . ولما كان من أهم خصائص الحياة وميزاتها انها تدفع بالفرد وبالشعب الى تأكيد وجوده احياناً عن طريق السلطة السياسية، واخرى عن طريق المال ، ولما كان الشعب اليهودي قد اعلنهــا حرباً شعواء على الشعوب والامم الأخرى منذ ان عرفت اليهودية واليهود لهــا ولهم وجوداً في التاريخ البشري ، لذلك فــان اليهود كان لا بد لهم ان يمنوا بسلسلة طويلة من الهزائم والفشل في الحرب التي اعلنوها على الانسانية جمعاء. والشعب اليهودي كما نعلم شعب نشيط يتجاوز به الطموح حدود الطمع، لذلك اتجه اليهود بعد ان لاقوا الهزيمة تلو الهزيمة في ميدان السلطة السياسية الى ميدان المــال . وركزوا كل مجهوداتهم على ان يصبحوا القوة المــالية الاولى في العالم ، او بالاحرى شعب الله المختار لجمع المال وتكديسه واستغلال بقية الشعوب وسرقة الامم الاخرى، فالدين الذي يرى في العدوان امراً مشروعــاً يعتبر السرقة والاستغــلال والتدليس والغش وجائب سماوية وفروض الهية . لذلك كله وقف الماليون اليهود في القرن السادس عشر فالسابع عشر فالثــامن عشر ضد كل حركة قومية يهودية تستهدف انشاء وطن ودولة قوميين ، وترمي الى تحويل المجهودات اليهودية عن تدعيم النفوذ المالي العالمي لليهود الى مجــالات السياسة ودهاليزها بغية تحقيق الوطن القومي اليهودي، وتجسيد الدولة القومية اليهودية ، إذ كان الرأسماليون اليهود يرمون آنذاك خاصة عقب النجاحات البــاهرة التي حققوها في ميدان معركة كسب المال وتثميره الى السيطرة على العــالم سيطرة كاملة شامــلة مطلقة ، وكانوا يعلمون انهم متى وصلوا الى هذا الهدف ، فان الوطن القومي والدولة اليهوديين سيتحققان آلياً ودونمــا عناء . والحق يقــال

ان الماليين اليهود كانوا، كما اثبت المستقبل،على صواب في نظريتهم هذه، ولما كان الرأي المصيب هو الذي يجسد ذاته ويفرض نفسه على المستقبل فرضاً لذلك خنقت الحركات القومية اليهودية السابقة لحركة «تيودور هرتزل»، وسنرى حينما نبحث في الصهيونية مدى المساهمة التي اسهم بها الماليون اليهود في حركة هرتزل هذه . تابع اليهود منذ القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر حربهم في ميدان المال، وركزوا في بادىء الامر نشاطاتهم على الاعمال المصرفية، واعمال البورص الدولية ، إذ انهم كانوا يعلمون حق العلم ان من يسيطر على المال يسيطر بالتالي على الصناعة،وأن من يتحكم بالمال يتحكم بالتالي على جميع فعاليات الاقتصاد الوطني والعالمي . فنشأت سلسلة ضخمة من البيوتات المالية اليهودية وطوقت هذه السلسلة العالم بجميع قاراته وشدته الى النفوذ اليهودي شداً محكماً ووثيقاً،فاصبح اليهودي هو الذي يقرر ويرسم اتجاهات الاقتصاد العالمي في جميع حقوله ، وغدا المال اليهودي عنصراً فعالاً وعاملاً قوياً في توسيع مجالات الطمع البشري ، فظهر الاستعمار بوجهه البشع وانشئت المستعمرات ، ونحن اذا ما راجعنا عصور الاستعمار يتضح لنا ان الاستعمار ولد في القرن ذاته الذي ولدت فيه الانظمة المصرفية ، وان الطابع البرجوازي للاستعمار لم يتجاوز المئة سنة،اذ سرعان ما غدا الطابع الرئيسي للاستعمار طابعا رأسماليا بكل ما لكلمة الرأسمالية من معنى ومفهوم . كما واننا نحن معشر العرب لنذكر بألم ان حصة من اسهم قناة السويس قد اشترتها بريطانيا بقرض يهودي، ولنذكر ايضاً ان روتشيلد كان له الاثر البالغ في دفع بريطانيا الى احتلال مصر ، وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن انكارها .

لقد كان كارل ماركس مصيباً كل الصواب عندما نادى بتحرير العالم من اليهودية ، اذ رأى انه لا سبيل الى تحرير العالم من النظام الرأسمالي البشع الا عن طريق تحرير العالم من اليهودية . فالرأسمالية واليهودية هما القاعدتان اللتان ارتكز ويرتكز اليها اليوم الاستعمار الذي يعتبر أبشع مظاهر الرأسمالية وأشد أمراضها فتكاً بالكرامة الانسانية .

نمت الرأسمالية اليهودية العالمية وتضخمت، وسيطرت البيوتات المالية اليهودية على الصناعات في العالمين القديم والجديد ، وغـدا اليهودي هو الذي يقرر سعر الاسهم، وهو الذي يحدد اسعار المنتجات من بضائع وسلع ، وهو الذي ينشىء المؤسسات والمشروعات ويهدمها ، فكل مشروع لا يمكن ان يخرج الى الوجود اذا لم توافق عليه البيوتات المالية اليهودية، فتمده بالقروض والأموال ، أما اذا خرج مشروع ما دون رغبة اليهودية العالمية فالبورصة كفيلة بهدمه وتدميره او بجعله لقمة سائغة لليهودية العـالمية (ولا اريد ان اتوسع في شرح هذا الموضوع، ولا شك ان القارىء المطلع عن المبادىء الاولية لانظمة البورصة يعرف ما اعني)

وهكذا غدا المال اليهودي بمثـــابة الاوكسجين للدم الذي يجري في شرايين النظام الرأسمالي ، وبلغ النفوذ اليهودي مبلغاً جعل « بن غوريون » رئيس اصغر دويلة ممسوخة في العالم يرد على « ترومان » رئيس الدولة الكبرى « العظمى » في انسانيتها – الولايات المتحدة الاميركية عندما طلب ترومان منه في ٢٩ ايار ١٩٤٩ بمذكرة قوية اللهجـــة ان يعيد مئتي الف لاجىء عربي الى ديارهم ، اقول جعل « بن غوريون » يرد على « ترومان » الذي سيبقى اسمه ملطخاً بالعار ، قائلاً :

« ما دام الصلح لم يتم مع العرب فلن يُسمح لاعــــداد كبيرة من اللاجئين بالعودة ، ان الولايات المتحدة بلد قوي، أما اسرائيل فبلد صغير وضعيف، إننا قد نسحق ولكننا لن ننتحر » .

ويصف السفير الاميركي في اسرائيل المستر مكدونالد تراجع الولايات المتحدة التام في وجه رسالة بن غوريون فيقول في مذكراته :

« إن المذكرة الاميركية التالية إطرحت تمام الاطراح اللهجة الصارمة التي صيغت بها سالفتهـــا ، لقد كفت واشنطن اكثر فاكثر عن وضع القوانين لتل أبيب » .

(من كتاب هكذا يضيع الشرق الاوسط صفحـــة ٢٧٨ – ٢٧٩ لالفرد ليلينتال – ترجمة دار العلم للملايين .)

ولأضع أمام القـــارىء الكريم أثر النفوذ اليهودي في العالم الرأسمالي سأنقل الفقرة التالية من الكتاب ذاته ، ومن الصفحة ٢٢٩ والتي يقول فيهـــا « الفرد ليلينتال » ما نصه :

« وحـــتى الشركات الأميركية ذات المصالح الاقتصادية في الشرق الأوسط ، بالرغم من إدراكها التام ان رؤوس اموالهـــا لا بد من ان تتأثر بموقف الولايات المتحدة إزاء اسرائيل ، فضلت في حينها أمكنها ان تبقى بعيدة تماماً. لقد شعرت صغرى هذه الشركات بأن على الشركات الكبرى نفسهـــا تتصدى ، ولكن هذه (الشركات الكبرى) كانت تخشى أن تدلي بآرائها .

ولنسمع الآن مـــا يقوله الدكتور رالف بانش مساعــــد سكرتير هيئة الأمم المتحــــدة ، وقد ورد قوله هذا في الكتاب الآنف الذكر وفي الصفحة ٢٢٤ منه :

« حتى الفكاهة فيما يتعلق بفلسطين تثير الجدل » .

ولنسمع ما يقوله الجنرال « فان بانكه » الدانماركي وكبير المراقبين السابق للهدنة (المورد ذاته ٢٧٢) .

« كنت ميالاً جداً الى اليهود عندما وصلت الى فلسطين، ولكن قراء الصحف الدانماركية لا يعطون صورة صادقة عما يجري هناك، إن وجهات النظر اليهودية هي السائدة » .

ولنتمعن بهـــذه الكلمات القليلة التالية التي تشعرنا بالنفوذ الرهيب الخطير للرأسمالية اليهودية العالمية في زعيمة العالم « الحر طبعـــاً » الولايات المتحدة الأميركية .

كتبت فرجينا جيلدرسليف وهي عميدة من عمد الجامعة الاميركية تقول:

« ان عجز الصهاينة عن الصبر على اي نقــــد غير ملائم يوجه اليهم او الى اسرائيل من غير ان يصبوا على الناقد جـــام الطعن الشخصي وينسبوا اليه دوافع خسيسة واحقـــاداً ، ان هذا العجز سوف يعوق الدراسة العقلانية لمشكلات الصهاينة والمشكلات الاسرائيلية . اني بوصفي اميركية صالحة انتقد في حرية ،

وعلى رؤوس الاشهاد، اعمالاً تقوم بها بلادي نفسهـا إذا اعتقدت انها خاطئة . واني كذلك انتقد في بعض الاحيان اعمالاً تصدر عن بلاد اسلافي القدماء انكلترا وفرنسا ، فلماذا لا أكون حرة في انتقاد اعمال اسرائيل بالطريقة نفسها ؟ لمـاذا يجب ان تكون تلك الدولة، وذلك الشعب وحدهما من بين دول الارض وشعوبها ذوي حرمة قدسية فليس من حق أحد ان يمسها ».

يتضح من قول هـذه الاميركية المتحررة ان الرأسمالية اليهودية العالمية لا تكتفي باستغـلال وخنق حريات الشعوب في المستعمرات ، وانما تتجاوز هذا الامر الى استغلال وخنق حريات شعبها بالذات .

واخيرا لنتدبر كلمات وايزمن اليهودي المتدين اي الصهيوني ، لنرى الى اي مدى بلغ تأثير المالية اليهودية العالمية ونفوذها . يكتب « وايزمن » في مذكراته يقول :

« نحن اليهود كنا نسعى لاقامة دولة لنا في فلسطين وقد انتدبنا (لاحظ هم انتدبوا) الانكليز لحكمها ، واستعنـا في هذا بعصبة الامم ، فنحن الذين سلمنا للانكليز موقتاً فلسطين، وليس الانكليز هم الذين وهبوها لنا بعد ذلك » .

لا شك ان القارىء الكريم يدرك مغزى كلمات وايزمن هذه ، فوايزمن يعني انه المالية اليهودية العالمية هي التي تحكم بريطانيـا ، وتوجه عصبة الأمم وليست بريطانيا التي كانت عظمى آنذاك هي وعصبة الامم اللتان وهبتا اليهود فلسطين، وقد جاء لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ليؤمن على كلام وايزمن ويقول :

« لقد تحققنا في عام ١٩١٧ أن من الضروري لنا ان نحصل على كل مساعدة يمكننا الحصول عليها ، وقد وجدنا من الواجب علينا لهـذا السبب ان نكسب ود اليهود ».

وهاك ايها القارىء مثلاً آخر على مدى تعـاون الاستعمار ، وربيبته المالية اليهودية العالمية، إذ يقول أحد الكتاب الانكليز ما ترجمته : « كان يرى الانكليز ابان الحرب العالمية الاولى أن اليهود، بما يعانونه من اوضاع سيئة في مختلف البلدان، وما لديهم من رؤوس اموال كبيرة هم خير من يكون آلة للانتداب البريطـاني

على فلسطين ، وهذا ما جعل البريطانيين يتبنون قضيتهم ، ويتخذونهم تكئة لنيل الانتداب ».

ه ـ الحركة الصهيونية والاستعمار في العالم العربي

قلت فيما تقدم ان الماليين اليهود خنقوا في السابق كل حركة قومية يهودية كانت ترمي الى انشاء وطن قومي ودولة يهوديين ،وذلك كي يركزوا مجهوداتهم على إنماء رؤوس اموالهم ليدعموا سيطرتهم على العالم . وعندما تأكد الماليون اليهود من أن سيطرتهم على الاقتصاد العالمي أصبحت كاملة شاملة ، وان نفوذهم السياسي نتيجة لذلك بات رهيباً مدمراً،وانه لن توجد بعد اليوم دولة رأسمالية يمكن ان تعصي لهم امراً، عندئذ إتجه الماليون اليهود بكل قواهم نحو تأسيس الوطن القومي اليهودي وتجسيد الدولة اليهودية في فلسطين ولقد بدا في نهاية القرن التاسع عشر ان الخلافات بين المالية اليهودية العالمية وبين الحركات القومية اليهودية التي تجمعت اخيراً في الحركة الصهيونية قد اخذت بالتلاشي والزوال، وكان من اهم اسباب الاتفاق بين الصهيونية والمالية العالمية اليهودية إنحلال الامبراطورية العثمانية، وتدهور الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد العرب إبان الحكم التركي، وتطلع الدول الغربية الممثلة ببريطانيا وفرنسا الى تصفية تركة الرجل المريض المحتضر :الخلافة العثمانية والتحقق من وجود البترول في مناطق الموصل وبقية الأقاليم العربية الاخرى ، وصيرورة مناطق الشرق الاوسط مجالاً طيباً او بالأحرى ممتازاً لاستثمار رؤوس الاموال اليهودية العالمية، كل هذه الامور جعلت دعوة«تيودور هرتزل»الى تأسيس دولة يهودية في فلسطين تلقى الأذن الصاغية من الرأسمالية اليهودية العالمية،وتنطلق كالصاروخ الى افئدة بيوتات المال اليهودية وتتعداها الى جماهير الشعب اليهودي ، ومن ثم الى الدول

الاوروبية التي كانت تتلهف على تصفية تركة « الرجل المريض » ، وتسعى جاهدة لتزنه . وقد وجد الاستعمار البريطاني الفرنسي في الحركة الصهيونية طليعة او رأس جسر تعبر عليه الى تحقيق اغراض الرأسمالية الغربية التي هي في الاصل اغراض المالية اليهودية العالمية . فكان تشارل هنري تشرشل اول انسان غير يهودي قام بالخطوة العملية الاولى على الطريق الى تأسيس الدولة اليهودية، فاستحصل من السلطان عبد الحميد على فرمان يكفل لليهود المساواة في الحقوق المدنية وبقية سكان الامبراطورية العثمانية ،واعقبت هذه الخطوة خطوة أخرى خطاها على هذا السبيل السير « موير منتيفيوري » اذ تمكن بالتعاون والحاخام الانكليزي الأكبر « ناتان آدلر » من جمع ثلاثين الف جنيه استرليني، كما وحصلا على فرمان من السلطان السيء الذكر عبد الحميد يخول بموجبه اليهود حق تملك الاراضي في فلسطين، واعقب هاتين الخطوتين العمليتين عقد اول مؤتمر صهيوني في مدينة « بال » عام ١٨٩٧ ،وترأس هذا المؤتمر تيودور هرتزل وأسفر اجتماع المؤتمرين عن الموافقة على المنهاج التالي للحركة الصهيونية :

ا – تشجيع الاستعمار اليهودي في فلسطين بطريقة منظمة .

ب – تنظيم الحركة الصهيونية واتحاد الهيئات اليهودية المتفرقة في شتى انحاء العالم .

ج – ايقاظ الوعي القومي في الفرد اليهودي .

د – القيام بمساعي جدية لدى مختلف الحكومات للحصول على موافقتها على أهداف الحركة الصهيونية .

وسارعت المالية اليهودية العالمية الى معاضدة هذا المؤتمر وتدعيم قراراته ، فامدته الحركة الصهيونية بمليونين من الجنيهات الاسترلينية كانت النواة لمصرف صهيوني يرمي الى الاسهام في انشاء المستعمرات الزراعية في فلسطين وتوطين اليهود في هذه المستعمرات .

وقد جعل التوطن في المستعمرات وفق المنهاج التالي :

ا – التوطن في المستعمرات الزراعية .

ب – التوطن في المستعمرات الجماعية ذات الملكية المشتركة .
ج – توطن اصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة .

وعقب ان انتهى المؤتمر الصهيوني عاد هرتزل فخوراً إلى « فيينا » وادلى مزهواً بالتصريح التالي :

« لو طلب الي تلخيص اعمال مؤتمر « بال » فاني اقول لا بل انادي على رؤوس الاشهاد، أنني اسست الدولة اليهودية ، وقد يثير هذا القول عاصفة من هنا وهناك ولكن العالم سيشهد بعد خمسة اعوام او بعد خمسين عاماً، ما فيذلك من شك ، قيام الدولة اليهودية» .

هذا ما قاله هرتزل ولقد تحققت بالفعل نبوءته إذ ان العالم شهد قيام دولة اسرائيل عقب المدة التي حددها وهي خمسون عاماً (١٨٩٧ مؤتمر بال ١٩٤٨ قيام دولة اسرائيل) غير ان اليهود مع ما يتصفون به من ذكاء او بالاحرى خبث ودهاء قد ضربوا عرض الحائط بابسط الحقائق، وهي ان الشعوب العربية التي تشكل الأمة العربية هي امة تخضع ايضاً لقوانين الحياة ، هذه القوانين التي تقول ان الأمة تغفو لتستيقظ ، كما وأعميت ابصارهم عن واقع اليقظة العربية التي بدت تباشيرها في الثورة العربية الكبرى، والتي اخذت تتألق من على حبال المشانق في القدس ودمشق وبيروت ، والتي مات شهداء السادس من ايار ونورها يشع وضاءً وضاحاً من عيونهم، ويتدفق كالسيل الهادر على ألسنتهم) صارخاً :

« فلنمت ولتحي الأمة العربية » .

كل هذه الحقائق نسيها اليهود وتناستها الصهيونية، غير عالمة ان بذرة القومية العربية قد بدأت تنمو، وان هذه البذرة ستصبح شجرة باسقة اقوى من الموت، لأنها جوهر الحياة ، لقد ربح الصهيونيون الجولة الاولى نتيجة للانظمة الرجعية التي كانت تسيطر على كل الاقاليم العربية . اما اليوم، وبعد ان دمرنا هذه الانظمة في كل من الجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية ، وسندمرها في جميع الاقاليم العربية الباقية الاخرى ، فاننا

سنقول لليهود والصهيونية ان الدولة العربية الاتحادية ذات المحتوى الاشتراكي هي في الطريق لتدمير ما يعرف اليوم « باسرائيل » ودك بنيانها دكاً ، وهذا الامر محتوم كالقدر .

لقد تم « لهرتزل » ما أراده، وتم ذلك نتيجة للتوافق بين اطماع المالية اليهودية العالمية والحركات القومية اليهودية والاستعمار، وأوجد الوطني القومي وأسست دولة اسرائيل، وانا هنا اريد أن أتنبأ للحركات القومية اليهودية بنبوءة كالنبوءة التي تنبأ بها هرتزل ونبوءتي هذه قد تثير السخرية والضحك في ارجاء « اسرائيلية » ولكنني واثق كل الثقة من انها ستتحقق :

انني اقول لكم ايها القوميون اليهود ان المالية اليهودية العالمية ستتخلى عنكم قريباً وقريباً جداً، لان التوافق بين رؤوس الأموال اليهودية ودولة اسرائيل قد بدأ بالتلاشي والزوال ، فلم تعد اسرائيل كما ارادتها المالية اليهودية العالمية قاعدة انطلاق لاستثمار الشرق العربي وجني الارباح وتكديسها ، بل اصبحت سجناً رهيباً للمالية اليهودية العالمية بعد ان فرضت الدول العربية اليوم (والدولة العربية الاتحادية غداً) الحصار الاقتصادي على اسرائيل، وحرمت التعامل مع أية شركة او مؤسسة تنشط او تعمل في الاراضي الفلسطينية المغتصبة . ان المالية اليهودية العالمية ستعود قريباً وقريباً جداً اذا بقي للنظام الرأسمالي من اثر إلى انتهاج السياسة ذاتها التي انتهجتها بين قرني السادس عشر والقرن التاسع عشر ، وهي وضع كل الظروف السياسية في خدمة رأس المال .

اننا نعلم اسباب رغبتكم الجامحة ايها القوميون اليهود في عقد صلح مع العرب، ونعلم اسباب ضغط الدول الرأسمالية علينا لعقد مثل هذا الصلح، ونعلم أن منبع هذه الاسباب جميعاً هي المالية اليهودية العالمية التي احبط العرب جميع خططها وستقضي عما قريب الدولة العربية الاتحادية الممتدة من المحيط الاطلسي حتى الخليج العربي على الاستعمار والمالية اليهودية العالمية واسرائيل .

اننا نحن معشر القوميين العرب الواقعيين في اشتراكيتنا، والمؤمنين بأن المرحلة القومية مرحلة جوهرية من مراحل الطريق الى الدولة العالمية، لنعلن على

رؤوس الاشهاد اننا قد اعلناها حرباً لا هوادة فيها ، او لـــين ضد الاستعمار
الممثل في الرأسمالية الدولية والمالية اليهودية العالمية واسرائيل، كما واننا لن نقبل
في المرحلة الحالية من مراحل تبلور القومية العربية ذات الاهداف الاشتراكية
بقيام أية حركة قومية في العالم العربي مـــا عدا حركة القومية العربية . وبعد
اليوم لا قومية فينيقية ولا قومية يهودية ولا اسرائيل ، بل قومية عربية تتجه
عقب تبلورها الى بناء الدولة العالمية الاتحادية .

فهرس

دار الكاتب العربي
للتأليف والترجمة والنشر
بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ١٥٧
هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

من منشوراتها